الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف – المسيلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

الرقم التسلسلي:

رقم التسجيل: M.AD/05/13

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي

تخصص: تحليل الخطاب وعلم النص

الخطاب القرآني

دراسة في العلاقة بين النص والسياق

قصص أولي العزم من الرسل عليهم السلام "أنموذجا"

إعداد الطالب:

إسماعيل زاوي

تاريخ المناقشة:

أمام لجنة المناقشة المكونة من السادة:

الرقم	الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفـــة
01	د. عمار بلقربشي	أستاذ محاضر(أ)	جامعة المسيلة	رئيسا
02	د. محمد بن صالح	أستاذ محاضر(أ)	جامعة المسيلة	مشرفا ومقررا
03	د. محمـــد دلـوم	أستاذ محاضر(أ)	جامعة المسيلة	ممتحنا
04	د. ناصر بركـــة	أستاذ محاضر(أ)	جامعة المسيلة	ممتحنا

السنة الجامعية: 2016 – 2017

بسم الله الرحمن الرحيم

* شكر وتقديــر *

بِسْمِ الله الرّحمـــن الرّحيــم

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إلاّ بالله عَلَيهِ تَوَكّلتُ وَإليهِ أُنيبْ ﴾

الحمد لله العلي القدير لمنه وكرمه عليّ إذ ألهمني الصبر والإرادة لإتمام هذا العمل

فلك اللهم الحمد والثناء كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك

اعترافاً بالفضل وتقديراً للجميل لا يسعني إلا أن اتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى الأستاذ الدكتور الفاضل " **محمد بن صالح**" الذي تكرّم بقبوله الإشراف على هذا العمل والذي لم يبخل عليّ بنصائحه القيّمة وتوجيهاته السّديدة والذي منحني من وقته وجهده الكثير فأسأل الله عز وجل أن يمَّن عليه بالأجر العظيم والثواب الجزيل وأن يبارك في عمره ويجزيه عني كل خير.

وكذلك أتقدم بالشكر الموصول إلى الذين حَملوا أقدس رسالة في الحياة، الذين مهّدوا لنا طريق العلم والمعرفة، الّذين قدّموا لنا الكثير باذلين بذلك جهودا كبيرة في سبيل بناء جيل الغد لبعث الأمة من جديد... أساتذتنا الكرام.

كما أتقدم بالشكر إلى الأستاذ الفاضل **عزوز ختيم** والسادة الأفاضل الذين شرفوني بقبولهم مناقشة هذا العمل

وإلى كل من بذل معي جهداً ووفر لي وقتاً ونصح لي قولاً

الإهداء

الحمد لله فالق الأنوار وجاعل اللّيل والنّهار ثم الصّلاة والسّلام على سيدنا محمد المختار.

بأسمى وأرقى آيات الحب والوفاء ي يسرني أن أقدم ثمرة جهد هذا العمل إلى:

من نزل في حقهما قوله تبارك وتعالى ﴿ وقلْ ربِّ ارحمهما كما رباني صغيرا ﴾.

- ✓ إلى من علمتني الصبر وغمرتني بالحب بل إلى الحب في ذاته، إلى من لا حياة لي بعدها... إليك أمي عائشة
- ✓ إلى روح والدي -رحمه الله وطيب ثراه- الذي تمنيته حاضرا في مثل هذا اليوم
- ✓ إلى روح الغالي علينا جميعا أخي بلقاسم
- ✓ إلى من كانت معي صابرة فشجعتني وكانت معي واقفة دائما فأمدّنتي بالعزيمة والصبر ... زوجتي المصون
- ✓ إلى أولادي قرة عيني دعاء، منصف و رزان
- ✓ إلى جميع أفراد عائلتي الكريمة كل باسمه
- ✓ إلى زملائي وزميلاتي الأساتذة وقيادة مدرسة أشبال الأمة بالمسيلة.

إليكم جميعا أهدي عملي هذا مرفوقا بحبي وسلامي

إسماعيل

مقدمـــة عامـــة

مقدمة عامة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من نزل على قلبه أكمل وأجمل بيان، سيدنا محمد سراج قلوب السالكين، و جنة مشهد المحبين، و لواء تاج العارفين، و جلال جمال الهائمين، و على آله وصحبه أجمعين أما بعد:

لابد في البداية من الاعتراف بأن البحث في النص القرآني قد شغل عندي هاجسا قديما، لم يتركني قط، إلا و عاودني من جديد، فكان كلما مر بي موضوع وثيق الصلة بالقرآن الكريم، أشرعت قلمي متحفزا لكن سرعان ما يزول وهج هذا التحفز مع الكلمات الأولى؛ التي أراها لا تنبئ بجديد غير ما قدم الآخرون.

غير أنّ هذا الهاجس قد استحال –بعون الله و قدرته– إلى حقيقة واقعة، بطرح هذه الدراسة (الخطاب القرآني: دراسة في العلاقة بين النص والسياق)، و التي وجدتني من خلالها بصدد مقاربة ذات أبعاد جمالية متعددة، تشتغل على النص القرآني، و تتنوع فيها أدوات التحليل و زوايا الرؤية، عبر التفاعل الدائب بين التحليل الأسلوبي و الاكتناه المعرفي و الحضور الجمالي.

نبعت أهمية هذه الدراسة المتواضعة و تعاظمت قيمتها من محاولتها الولوج إلى النص القرآني كمعجزة إبداعية جمالية كبرى، و التأمل في سعة خطابه، و الوفود على بعض جوانب بيانه، الذي لا يدانيه بيان فهو الكتاب الرباني الذي ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾.

ولا خلاف في أن القرآن الكريم هو الفضاء الروحي والفكري الذي صاغ الهوية الحضارية العربية الإسلامية، فهو النبع المتدفق الذي يرفدنا بالمعنى و القيمة، فإذا كان هو كذلك فلم لا ننحاز إليه ونتمركز حوله كي نستكشف ماهيته الجمالية، ونبحث فيه عن أسس لاشتغالات جمالية عربية إسلامية، ذات مضمون روحي، تجدد رسالته، وتعمل على ترسيخ قيم الحسن و الجمال، حتى يفيد منها الإنسان في بناء وتطوير ذاته معرفيا و سلوكيا و ذوقيا؟ و بخاصة في هذا العصر.

و الجمالية التي أقصدها هنا في هذه الدراسة، هي كل ما يدل على خصوصية في طريقة الأداء في الخطابات النصية الإبداعية، و هي خصوصية تترك شعورا يلقي بظلاله على الصياغة الفنية، بحيث يكون قادرا على إثارة انفعالات المتلقين و عواطفهم، فيحقق لديهم متعة و لذة و استجابة.

وستكون هذه المصطلحات الثلاثة التي يتأسس عليها عنوان الدراسة عماد هذه البحث والتحليل لما له صلة بقصص أولي العزم من الرسل عليهم السلام، لذا ينبغي الإشارة ابتداء إلى أن النص كما نتصوره يتشكل ضمن سياق أو سياقات معينة، و يحمل خطابات متنوعة لها أنساق لغوية مختلفة. وإن تبين العلاقة بين النص و السياق في لغة الخطاب القرآني يبدو مستعصيا ما لم تحدد الأطر المفهومية لهذه المصطلحات و ما اتصل بها من خلفيات ومرجعيات.

أولاً: إشكالية الدراسة

مما سبق جاءت دراستنا هذه لتغطية جزء من هذا الموضوع الواسع من الناحية العلمية والعملية في محاولة جادة لإبراز أن الخطاب القرآني مخالف لما قيل عنه بأنه مفكك وعبارة عن طلاسم وطقوس لا وجود لخيط ناظم يجمعها، بل على العكس من ذلك فهو تنظمه وحدة من نوع خاص تمثل إعجازا في حد ذاتها إنها النسقية وخير دليل على ذلك ما نلمسه من قصص الأنبياء وذلك التماسك والتناسق بين نص هذه القصص وما يسفر عنه سياقها بوضوح.

وعليه فإن إشكالية هذه الدراسة تبلورت في جملة من التساؤلات هي:

- ما مفهوم الخطاب القرآني؟ وما هي أنواعه؟
- ما المقصود بالسياق؟ ما أهم أنواعه وخصائصه؟ وما العلاقة بين النص والسياق في المساهمات العربية والغربية؟
- فيم تجلت العلاقة بين النص والسياق في السور المتضمنة قصص أولي العزم من الرسل؟

ثانياً: دوافع اختيار الموضوع

دفعني لاختيار هذا الموضوع كمحور لهذا الدراسة جملة من العوامل الذاتية والموضوعية:

أ. العوامل الذاتية:

- الرغبة في إثراء وتنمية معلوماتنا في هذا المجال وولوج اتجاهات البحث اللساني والاسترشاد بها للتعرف على أهم منطلقات الخطاب داخل النص القرآني.
- الرغبة في الانعتاق من بوتقة الدراسة التقليدية، حيث كانت هذه الدراسة فرصة معرفية أتاحت لنا قراءة الخطاب القرآني من منظور مفهوم تحليل الخطاب كبعد تواصلي.
- محاولة الغوص أكثر والتمعن في آليات الإعجاز الموجودة في نصوص القرآن الكريم.

ب. العوامل الموضوعية:

- حاجتنا إلى معرفة أسرار وخبايا الخطاب القرآني وتجليات الصور الجمالية فيه.
- التعرف على الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني.
- قلة الأعمال والدراسات التي تناولت هذا الموضوع والتي إن وجدت فإنه وفي ظل تداخل المفاهيم نجدها لا تروي ظمأ الباحث.
- تزويد المكتبة الجامعية بإضافة عن هذا الموضوع وجعل هذه الدراسة كمرجع للدراسات اللاحقة التي ستتناول جوانب أخرى من هذا الموضوع.

أهمية الدراسة:

تكتسي هذه الدراسة أهميتها من أهمية الموضوع المدروس حيث إن السياق من القضايا التي نالت اهتمام عديد العلماء والباحثين من القدماء. كما أن شرف البحث بلا شك من شرف موضوعه. وهل هناك من شرف أعظم من التمعن في كتاب الله العزيز ودراسة قصص الأنبياء للغوص في جماليات النص القرآني وسياقه؟

رابعاً: صعوبات الدراسة

لقد واجهت الباحث في مراحل إعداد دراسته ومحاولته الإجابة عن الإشكالية المطروحة صعوبة التعامل مع النص القرآني لقداسته وسمو منزلته، وعليه فما التوصل إليه من نتائج لا يعدو أن يكون سعيا ذاتيا واجتهادا فرديا.

خامساً: منهج الدراسة

اقتضت طبيعة موضوع هذه الدراسة اتباع منهج وصفي تحليلي من حيث التطرق إلى أهم المفاهيم لكل من الخطاب والخطاب القرآني، ثم رصد العلاقة بين النص والسياق من خلال استقراء الأدبيات التي تطرقت إلى الموضوع، ومن ثم البحث في هذه العلاقة في سور من القرآن الكريم التي تضمنت قصص أولي العزم من الرسل.

سادساً: هيكل الدراسة

لمحاولة تغطية جميع جوانب الموضوع ارتأيت أن يُقسّم مخطط البحث إلى مدخل وفصلين تناولا عناصر الدراسة الأساسية وانتهى بخاتمة ضمّت أهم النتائج المتوصل إليها.

مدخـل تمهيدي لضبط المفاهيم

تمهيد:

اهتمت الدراسات النقدية واللسانية بالنص والسياق والخطاب لما لهذه المصطلحات من أهمية بالغة في حقل الكتابة الإبداعية بمستوياتها الأسلوبية وبنياتها النصية وخصائصها الفنية، لذا سينصب الحديث عن هذه المصطلحات رغبة في الوقوف على مدلولاتها الفارقة.

1- الخطاب

الخطاب **لغة** هو توجيه الكلام نحو الغير للإفهام و مراجعة الكلام [1] فيقال: قد خاطبه بالكلام مخاطبة و خطابا. [2] والخطاب: محاورة و جدال، و محاجة كلام [3]. و في التنزيل العزيز: ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ [4].

وأما فصل الخطاب فهو ما ينفصل به الأمر من الخطاب، [5] مثل قوله تعالى:﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[6] . وخطب: أي وعظ و قرأ خطبة على الحاضرين. و الخطب يفتح الخاء أي: الشأن المكروه وبضم الخاء أي الخُطبة والخُطابة و الخُطاب. وبكسر الخاء الخِطبة: طلب الفتاة للزواج.[7]

و إذا ما حاولنا الاقتراب من كتب اللغة العربية لنحدد مفهوم المصطلح لغويا، سوف نصطدم –حتما– منذ البداية بتزاحم المدلولات، لذلك سوف أقوم باستخلاص بعض المفاهيم التي من شأنها أن تخدم النقطة المعالجة، و حتى لا نقع في الحشو أو التكرار. فكلمة ((الخطاب)) أحد مصدري الفعل خاطَبَ يخاطِبُ خطابا و مخاطبة. يقول ابن منظور: "الخطاب و المخاطبة مراجعة الكلام و قد خاطبَكَ بالكلام مخاطَبَة و خِطابا"[8].

---

[1] الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين، (مصر، دار الهلال)، ص 252.

[2] ابن منظور، محمد بن كرم: لفسان العرب، (بيروت، دار الكتب العلمية، 2005 م- 1426 هـ)، ط1، ص 336.

[3] مخلوف، حسنين محمد (الشيخ): كلمات القرآن (دار أحياء التراث العربي، ص 271).

[4] سورة ص: 23.

[5] مصطفى إبراهيم: الزيات، أحمد: عبد القادر، حامد النجار، محمد: المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، 505/1.

[6] سورة ص: 20.

[7] المعجم الوسيط، د. ناصر أحمد، د. مصطفى محمد، أحمد درويش، أ. أيمن عبد الله، مؤسسة التاريخ العربي للطباعة و النشر والتوزيع، دار أحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

[8] ابن منظور: (لسان العرب، مادة (خ ط ب)، ج 4 ، دار صادر، بيروت، ط1، دت، ص 135.

الخِطاب أحد مصدري فعل (خاطب) يخاطب مخاطبةً و خِطابًا، و هو يدل على "توجيه الكلام لمن يفهم"[1]. و في اللسان: الخطاب مراجعة الكلام[2]، و في المعاجم الحديثة نجد الخطاب يأتي بمعنى الحديث و القول، و تذكر هذه المعاجم عددًا من التعريفات منها: "إيصال المعنى إلى السامع عن طريق الكلام"[3]، و يضيف آخرون إلى هذه العبارة "بحيث تتسلسل الكلمات و تترتب"[4].

أما الخطاب **اصطلاحا** فقد شغل موقعا محوريا في الأبحاث التي تندرج في مجال تحليل النصوص؛ إذ يعد في حدّ من حدوده وسيلة تعبيرية منتجة عن طريق العلامة اللغوية، تتيح للإنسان التعايش الجمعي الذي يمكنه من مشاركة الآخرين، وبهذه الرؤية يرتبط مصطلح الخطاب بدلالته على فعل التواصل. حيث تحيل كل عملية خطابية على عناصر عديدة للتواصل تتمثل في المتخاطبين، وسياق الخطاب و مقاصده.

والخطاب كمفهوم ظل يقبل التأويل في حقول معرفية أخرى، دون التبلور في إطار تعريفي يؤدي إلى تحديد خصائصه و سماته على نحو ينطبق عليه التعريف في حقول المعرفة المختلفة التي تستعين بمفهوم الخطاب. من هنا جاءت جل الخطابات خاضعة للمعارف التي تستخدم فيها، كالخطاب السياسي، والخطاب الإعلامي و الخطاب الديني و الخطاب الأدبي و الخطاب الفلسفي و الخطاب القرآني.

و يضيف آخرون بأن الخطاب "قد يكون شفويًا أو تحريريًا و يعالج موضوعًا بشيء من التفصيل"[5] ويحدده آخر " بالكلام المنطوق عندما يتجاوز الجملة الواحدة طولا[6]. و أشار الأصوليون إلى تطور مصطلح (الخطاب)؛ فهو في عرفهم يدل على ما خوطب به وهو الكلام[7].

و يضيف الكفوي في (كلياته) عنصرا جديدا إلى التعريف و هو الجانب النفسي فيقول: "إنه الكلام أو النفسي الموجه نحو الغير للإفهام[8].

---

[1] محمد بخيت، سلم الوصول لشرح نهاية السؤال، ج1، سنة 1982، ص48.

[2] لسان العرب، مادة (خطب).

[3] محمد علي الخولي، معجم علم اللغة النظري، ص 103.

[4] إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات اللغوية، (مادة خطب).

[5] رمزي البعلبكي، معجم المصطلحات اللغوية، (مادة خطب).

[6] محمد التونجي، المفصل في علوم اللغة، ص 300، و بسام بركة، معجم اللسانية، ص 61.

[7] إدريس حمادي، الخطاب الشرعي و طرق استثماره، ص 21.

[8] الكفوى: أبو البقاء، الكليات معجم في المصطلحات و الفروق اللغوية، ص 194.

وهو تعريف مواقف لتعريف الغزالي في المستصفى[1]، و لا ريب أن هذه إضافة نوعية للتعريف توحي بعنصر السياق الذي سيأتي. و الخطاب مثلما يظهر في الدراسات المختصة عملية اتصال تتم في إطارين: الإطار اللغوي؛ فقد يكون متوالية من الجمل المكتوبة أو المنطوقة، ينتجها مرسلٌ واحد أو عدة متخاطبين كما يحدث في الحوار أو غيره، و إطار غير لغوي يشمل العادات و الأعراف و التقاليد والأخلاق وهو ما أطلق عليه مصطلح إثنوجرافيا الخطاب.

والخطاب باعتباره حدثا كلاميا يتألف من عدة عناصر هي: المرسل، والمستقبل أو الجمهور، والرسالة أو الموضوع، والهدف، ويؤثر هذا الهدف تأثيرا جليا في إستراتيجية المرسِل فيملي عليه اختيارات معينة من بين البدائل التي يتيحها له النظام اللغوي، وقد يؤثر في صورة الحديث وطريقة بنائه، وهو يفسر الكثير من المتغيرات الأسلوبية التي ترافق عملية التعبير اللغوي. ويربط بعض علماء اللغة هدف الخطاب بالأثر الذي تحدثه وسيلة الاتصال بين المرسِل والمتلقي، وقد عبروا عن هذه الوسيلة باستخدام كلمة قناة[2].

ومن خلال التطواف في البحوث المتصلة بمصطلحي الخطاب و تحليل الخطاب، نجد أن الخطاب كلمة تستخدم للدلالة على كل كلام متصل اتصالا يمكنه من أن ينقل رسالة كلامية، أو الكاتب، و ليس كل خطاب نصا و إن كان كل نص بالضرورة خطابًا؛ فالكلام المتصل خطاب، و لكنه لا يكون نصا إلا إذا اكتمل ببداية و نهاية و عبر عن موضوعه ببناء متماسك منسجم.

2- الخطاب القرآني

الخطاب القرآني خطاب رباني صادر من الله الخالق، فهو منزه عن المشابهة، فخطابه لا يشبه أي خطاب بشري، فهو معجز لا يجاريه أرباب اللغة و البيان قديما وحديثا من فحول الشعراء أو الخطباء العرب. ويتضمن الخطاب القرآني موضوعات أساسية كثيرة تعبر عن منهج يضبط جميع مناحي الحياة الإنسانية، فهو يشمل الخطاب العقدي و الاجتماعي و الأخلاقي و السياسي و غير ذلك[3].

ونستطيع القول إن الخطاب الاجتماعي على سبيل المثال يتمثل في خطاب الآيات القرآنية للنبي أو تخاطب أمته، وتتعلق بأغراض اجتماعية تخص المجتمع الإسلامي كقوله تعالى:﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ

---

[1] الغزالي، المستصفي في علم الأصول، ج1، ص64.

[2] محمد مفتاح، دينامية النص: تنظير و إيجاز، ص 167.

[3] ينظر: الخطاب النفسي في القرآن الكريم، ص 15.

أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ النور الآية 31.

فهو أمر من الله لرسوله بأن يأمر المؤمنات بغض أبصارهن و حفظ فروجهن، و عدم إبداء الزينة، و أن يلبسن الخمار على رؤوسهن، و مثله في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ الأحزاب، الآية 59.

أما الخطاب الأخلاقي القرآني، فهو خطاب الله بالأمر بالأخلاق الحميدة أو النهي عن خلق ذميم كان سائدا في الجاهلية كما في قوله تعالى: ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً ﴾ النور، الآية 33 ينهى الله ولاة الأمور و السادة عن إكراه الإيماء على مزاولة مهنة البغاء مقابل عَرَض مادي، و قال بعض المفسرين في النص تقديم و تأخير، أي و أنكحوا الأيامي و الصالحين من عبادكم إن أردن التحصن [1]، فإذا كان التنبيه على زواج الإيماء فمن باب أولى الاجتهاد في زواج الحرائر ممن لا أزواج لهم حتى يتحقق العفاف و الطهارة.

الخطاب القرآني خطاب إلهي معجز، و من ثم يمتلك من الأدوات ما يجعله مؤهلا –و بشكل دائم– لأن يكون من أهم الوسائل التعبيرية التواصلية القادرة على استيعاب الأنساق الحضارية. إنه رسالة ربانية لكل الناس دون تحيز أو طائفية أو جغرافية معينة. فهو خطاب هداية و خير، و هذه الخيرية لم تكن فيه امتيازا لطبقة أو طائفة دون أخرى، بل جاءت عامة.. ينعم بها كل بني البشر.

وهو إبلاغية ربانية عالمية لكل الناس، أنزله الله تعالى على نبيه ﴿لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [2]. وفي ذلك يقول العلامة الشيخ سيد قطب: "لقد جاء هذا الكتاب لينشئ أمة و ينظم مجتمعا ثم لينشئ عالما و يقيم نظاما، جاء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس إنه جاء لإنشاء مجتمع عالمي إنساني و بناء أمة تقود هذا المجتمع العالمي و أنه الرسالة الأخيرة التي ليست بعدها من السماء رسالة"[3].

إن هذه الرسالة الخالدة هي رسالة أبدية ليست بعدها رسالة، و أن صلاحيتها باقية إلى يوم الدين جاءت لتستوعب الزمان و المكان و الإنسان. و في هذا الشأن يقول الشيخ الغزالي: "فخطاب القرآن عالمي،

---

[1] ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، م6، ج12، ص 169.

[2] سورة الفرقان، الآية 1.

[3] سيد قطب: (في ظلال القرآن)، مصدر سابق، م 4، ج 14، ص 2190.

و رسالته خاتمة، و له بعد في الزمان الماضي و الحاضر و المستقبل، و له بعد في المكان بحيث يشتمل العالم كله" [1].

و لعل مجيء الخطاب القرآني بصيغة العموم و الشمول و الاستغراق لعموم الناس هو دليل صدق عالمية هذه الرسالة، فمن ذلك قول الله تعالى:﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَمِيداً ﴾ [2]. وقول الله تعالى:﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [3]. و قول الله تعالى:﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾ [4].

3- النص:

يعد مفهوم النص من أكثر المفاهيم اختلافا بين عديد التوجهات والمعارف والنظريات النقدية، من الظاهراتيين إلى البنيويين إلى السوسيولوجيين، غير أن المقام لا يتسع لاستقصاء مختلف التعريفات والمجالات التي يشتغل ضمنها النص إذ نجد من الدارسين من أمثال (بارت) من "تعددت تعريفاته للنص الأدبي بتعدد المراحل النقدية التي مر بها، منذ المرحلة الاجتماعية، و حتى المرحلة الحرة، مرورا بالبنيوية، و السيميائية"[5] فمن أهم محطات تعريف النص السوسيولوجية ما قام به (**بيير زيما**) من محاولة تحرير سوسيولوجيا النص الأدبي من إطار سوسيولوجيا الأدب، و ذلك حينما اعتبر النص الأدبي دليلا يتكون من "العمل الأدبي كرمز حسي و من الموضوع الجمالي الذي يمثله المعنى[6] لذلك فقد زاوج **زيما** بين السيميوطيقا و بين النظرية الأدبية انطلاقا من طبيعة النص التواصلية من جهة، و اعتمادا على بنيته المستقلة التي تجعل منه و بواسطة اللغة مرتبطا بالظواهر الاجتماعية، على اعتبار أن اللغة ظاهرة اجتماعية بامتياز.

---

[1] محمد الغزالي: (كيف نتعامل مع القرآن)، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة ، ط7، 2005م، ص 216.

[2] سورة النساء، الآية 131.

[3] سورة العنكبوت، الآية 8.

[4] سورة النجم، الآية 39.

[5] محمد عزام، النص الغائب (تجليات التناص في الشعر العربي)، اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2001، ص21.

[6] المرجع نفسه، ص 22.

من خلال ما قدمه **زيما** يمكن القول إن البنية النصية بنية شاملة تجمع إليها في آن واحد البنية اللسانية – عبر مستويات العلامات اللغوية– و البنية الاجتماعية على اعتبار ارتباط اللغة بالظواهر الاجتماعية.

ويقدم **امبرتو ايكو** في مجال السيميائيات تحليلا ديناميا للنص الأدبي، يفرض مجموعة من الأدوات الإجرائية للكشف عن حقيقة النص و تمييزه عن النصوص المتفاعلة معه، و التي تربط أساسا بتشكيله اللغوي أو بالنصوص المؤثرة على النسيج اللغوي، مؤكدا على "الخصائص الصوتية في النص الأدبي، و على العلاقات الاستبدالية القائمة على محور التركيب، و على الدلالات الإشارية و الإيمائية، وعلى الفضاء الإيديولوجي"[1] وهو الفضاء الذي يقابل النسيج اللغوي ككل و يتصل بالبرامج التركيبية للنصوص.

4-السياق :

السياق لغة لفظ ذو تعاريف عديدة، ففي اللسان يأتي بمعنى المتابعة، و منه: ساق الإبل يسوقها سوقًا وسياقًا، وتساوقت الإبل أي تتابعت [2]. وفي أساس البلاغة أن من المجاز قولهم: "فلانٌ يسوقُ الحديثَ أحسنَ سياق"، و"هذا الكلام مساقه إلى كذا" [3]. ومعناه هنا النمط الذي يتخذه الحديث في تتابع، و قريب من هذا ما ورد في المعجم، الوسيط: ساق الحديث: سرده و سلسلة، و ساوقه: تابعه و سايره و جاراه، و سياق الكلام: تتابعه و أسلوبه الذي يجري عليه [4].

ولا شك في أن الكلمة مرت بتطورات عديدة حتى وصلت إلى معناها الذي نعرفه اليوم. و قد تكون كتب التفسير و كتب الأصول من أوائل الكتب التي تبلور فيها معنى السياق كمصطلح، كما نجد ذلك في (الرسالة) للإمام الشافعي (ت204هـ) [5]. وتطلق كلمة (السياق) في عرف المفسرين على الكلام الذي خرج مخرجا واحدا، و اشتمل على غرض واحد هو المقصود الأصلي للمتكلم، و انتظمت أجزاؤه في نسق واحد، و قد تدل على السياق ألفاظ أخرى؛ كالمقام، و مقتضى الحال و التأليف، و غيرها.

---

(1) المرجع السابق، ص 23.

(2) ابن منظور، لسان العرب، مادة (سوق).

(3) الزمخشري، أساس البلاغة، مادة (سوق).

(4) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة (سوق).

(5) الشافعي، الرسالة، ص 58.

و في المعاجم الحديثة يعرف السياق بأنه: بيئة الكلام و محيطه و قرائنه [1] ويعرفه آخرون بأنه "علاقة البناء الكلي للنص بأي جزء من أجزائه [2]. وتشير هذه المعاجم إلى تضافر سياقات عديدة في النص تساهم في صياغة الرسالة اللغوية، وهي: السياقات النحوية، و البلاغية، و الصوتية. وانطلاقا منها تتداخل العديد من الاعتبارات النفسية والاجتماعية [3].

وقد اهتم النقاد والدارسون بالسياق من وجهات نظر مختلفة، فدرس أوستن السياق من خلال البنى المختلفة للرسالة اللغوية [4]واهتم علماء الدلالة بالمعنى السياقي، وقصدوا به المعنى الذي يستخرجه المخاطَب من الكلام استنادا للسياق، كما في بحوث جون لاينز [5]، وفيرث [6]. وأبرز الأسلوبيون علاقة الأسلوب بمقتضيات السياق المقامي، وعلى رأسها الإطار النفسي للحديث.

و مع تعدد هذه الميادين واختلاف الاتجاهات النظرية لأصحابها، فإنها تتفق في أن السياق يفسر الكثير من العمليات المصاحبة لأداء اللغة في وظيفتها التواصلية و الإبلاغية، لدى كل من منتج الكلام و المتلقي، وأنه ركن أساس في فهم الرسالة اللغوية. يأتي السياق في نوعين: السياق اللغوي، و السياق الحالي، و الأول منهما هو الذي يعطي الكلمة أو العبارة معناها الخاص في الحديث أو النص؛ فهو يزيل اللبس عن الكلمة، بينما سياق الحال أو المقام يزيل اللبس عن الجمل و النصوص.

---

[1] رمزي البعلبكي معجم المصطلحات اللغوية، ص 119.

[2] محمد علي الخولي، معجم علم اللغة النظري، ص 57.

[3] إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية مادة سياق. و مجدي و هبة، معجم مصطلحات الأدب، ص 8.

[4] عدنان بن ذريل، اللغة و الدلالة، ص 160.

[5] جون لاينز، علم الدلالة، ترجمة محمد عبد الحليم الماشطة و آخرون، ص 80.

[6] Firth J.R, Papers in linguistics, P 4.

الفصل الأول

الخطاب القرآني

تمهيد:

إن المتأمل في أسلوب الخطاب القرآني وبلاغته، يتبيّن له وجهٌ بديع من أوجه الإعجاز القرآني وبيان ذلك في شمولية الخطاب القرآني لجميع أصناف المخاطبين، على اختلاف أجناسهم، أمكنتهم ومللهم، وهذا فارقٌ رئيس في طبيعة الخطاب القرآني البليغ من غيره من سائر الخطابات.

وحينما نتدبَّر ونستقرئ آيات القرآن الكريم نرى أنَّه في نداءاته وتوجيهاته يتَّسم بالشمول؛ حيث إنَّه لم يجعل نداءه إلى فئةٍ دون فئة، أو جنسٍ دون جنس، أو أهل دينٍ دون غيرهم. بل شمل ذلك الخطاب أصناف العالمين من المخاطبين على تنوُّع أجناسهم وألسنتهم وأديانهم التي يدينون بها.

المبحث الأول: مفهوم الخطاب

المطلب الأول: تعريف الخطاب

تنوعت تعريفات الخطاب باختلاف المنطلقات الأدبية واللسانية المقاربة للمفهوم، ومن بينها:

– الخطاب المرادف للكلام أي الإنجاز الفعلي للغة بمعنى "اللغة في طور العمل أو اللسان الذي تنجزه ذات معينة كما أنه يتكون من متتالية تشكل مرسلة لها بداية و نهاية"[1].

– الخطاب: يتكون من وحدة لغوية قوامها سلسلة من الجمل [2]، أي رسالة أو مقول [3]. و بهذا المعنى يلحق الخطاب بالمجال اللساني، لأن المعتبر في هذه الحالة هو مجموع قواعد تسلسل و تتابع الجمل

– المكونة للمقول، و أول من اقترح دراسة هذا التسلسل هو اللغوي الأمريكي (سابوتي زليغ هاريس) [4].

– الخطاب: هو الوسيط اللساني في نقل مجموعة من الأحداث الواقعية و التخليلية التي أطلق عليها (جينيت) مصطلح الحكاية [5].

---

[1] سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء 1997م، ص 21.

[2] دومينيد مانقونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تو، محمد يحتاتن، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر 2005 م، ص 35.

[3] إبراهيم صحراوي: تحليل الخطاب الأدبي، ط1، دار الآفاق الجزائر، 1999 م، ص 10.

[4] محمد الباردي: إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، مركز النشر الجامعي، تونس، 2004م.

[5] جيران جينيت: خطاب الحكاية، تر، محمد معتصم و آخرين، ط3، منشورات الاختلاف، 2003م، ص 38- 39.

– و الخطاب حسب (بنفنيست E.Benveniste)"هو كل تلفظ يفترض متحدثا و مستمعا، تكون للطرف الأول نية التأثير في الطرف الثاني بشكل من الأشكال" [1].

المطلب الثاني: بنية الخطاب

إذا كان الخطاب عملية من عمليات التلفظ فهذا لا يعني أنه بنية لغوية بحتة، تنتجها مجمل القوالب الشكلية بمعزل عن سياق التلفظ، وما يكتنفه من ظروف أو يتضمنه من مقاصد، ولعل هذا الطرح السابق يمكن الباحث على طرح تساؤل يفي بتوضيح عتبة عنوان هذا الحديث، بعد الإجابة عليه، وهو: ما شروط إنتاج الخطاب وما قوانين تكوينيه وما شروط تلقيه وما سلطته وقدرته داخل النص؟

لابد في البداية من التأكيد على حقيقة مهمة في التعامل مع الآليات التي تحكم بنية الخطاب وتنتجه، هذه الحقيقة هي أن إنتاج الخطاب يرتكز على عملية تبادلية وجملة من البنيات اللغوية التي تنتظم بطريقة معينة لتنتج دلالة ما، وتحقق أثرا معينا من خلال إيجاد تفاعل مع المجال الاجتماعي الذي يعد مهادا لتلقي موضوع الخطاب. وحينئذ تتاح لمثل هذا الخطاب فرصة التجادل مع غيره من الخطابات الأخرى وبالتالي يشتبك مع وعي المخاطبين في محاولة لدفعهم إلى حقل قناعاته. فالخطاب في صميم بنائه لا يخرج عن كونه "وسيلة المتخاطبين في توصيل الغرض الإبلاغي من المخاطب إلى المخاطب"[2].

فالخطاب و إن كان ذا بنية، إلا أن هذه البنية تأتي في طور البنية الخاصة به، فهي ليست بنية التحليل البنيوي، أي بنية الوحدات المنفصلة المعزولة بعضها عن بعض، و إنما بنية التحليل التأليفي، أي التواشج و التفاعل بين وظيفتي التحديد و الإسناد في الجملة الواحدة فهو "مجموعة من النصوص ذات العلاقة المشتركة، أي أنه تتابع مترابط من صور الاستعمال النصي يمكن الرجوع إليه في وقت لاحق" [3].

المطلب الثالث: العناصر السياقية للخطاب

العناصر السياقية هي الإطار العام الذي يسهم في ترجيح و اختيار الآلية المناسبة لعملية الفهم والإفهام أو الإقناع و الاقتناع بين طرفي الخطاب المرسل و المرسل إليه. و يتم تحقق ذلك عبر مجموعة من العناصر

---

[1] محمد الباردي: إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، ص 1.

[2] محمد محمد يونس علي: (وصف اللغة العربية دلاليا)، منشورات جامعة الفاتح، ليبيا، 1993م، ص 135.

[3] روبرت دي بوجراند: (النص و الخطاب و الإجراء)، ترجمة: د. تمام حسان، عالم الكتب، ط1، القاهرة 1418 هـ-1998م، (المقدمة)، ص 6.

المؤثرة في إنجاز عملية التواصل في الخطاب، كالمعرفة المشتركة بين المتخاطبين، و الظروف الاجتماعية، و عنصري الزمان والمكان اللذين يتلفظ فيهما المرسل بخطابه.

المُرسِل: و يجسد الحلقة المحورية الأولى في إنتاج الخطاب، فهو المحرك الأساس للعملية الاتصالية، أينما طمح في التأثير على المستقبل.

المرسَل إليه: هو الإطار العام الذي يسهم في ترجيح و اختيار الآلية المناسبة لعملية الفهم و الإفهام أو الإقناع و الاقتناع بين طرفي الخطاب المرسل و المرسل إليه.

الرسالة: هي ما يرجع إلى الخطاب نفسه، و هي ذلك الكل الجامع بين العناصر الثلاثة السابقة، و بالتالي فإن الخطاب هو الرسالة الموجهة من المرسل إلى المرسل إليه في عبارات لغوية و آليات خطابية منتقاة ضمن سياق معين.

المبحث الثاني: مفهوم الخطاب القرآني

المطلب الأول: تعريف الخطاب القرآني

الخطاب القرآني هو كلام الله موجها في معظمه إلى من شهدوا نزول القرآن بشكل خاص مباشر على الرسول صلى الله عليه و سلم، و بشكل عام لسائر الناس. فقال تعالى:﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[1].

وقد أجمع المسلمون على أن القرآن كله كلام الله، بمعنى أن الله تعالى نزله على محمد صلى الله عليه وسلم لا بمعنى أن كله خطاب من الله تعالى، فإن مثلا:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2]. ليس إلا خطابا من العبد. فقال العلماء إن الله علم هذه السورة كأنه تعالى قال: قولوا هكذا. و لكن ليس هناك كلمة "قولوا" فكيف العلم بتقدير هذا المعنى؟ و كذلك السؤال فيمن إليه الخطاب، فإن للخطاب جهتين: ممن؟ وإلى من؟

و كلتاهما ربما تعم والمراد خاص، وربما يعكس الأمر. وإذ يختلف المعنى كثيرا باختلاف جهتي الخطاب، و عمومه وخصوصه. وجب البحث عن أصول تهدي إلى الصواب، فإن الخطأ فيه ربما يسقط المرء في شرك الشرك قال الرومي رحمه الله تعالى: إن الله تعالى جعل الناس عبادا للنبي صلى الله عليه و سلم

---

[1] زين الدين قاسم، غريب القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2012 م.

[2] سورة الفاتحة: 4.

حيث أمره أن يدعوهم بقوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [1]. و يقال إنه لم يرد الشرك بالله تعالى، و لكن القول يضاهي قول الذين كفروا، فيغفر الله له و الأمر ظاهر، فإن قوله تعالى:﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ خطاب منه تعالى إلى العباد، و صدره بقوله (قل) خطابا للنبي الكريم صلى الله عليه و سلم لكي يبلغه إلى العباد حرفا بحرف [2].

و من المعروف أن للخطاب مصدرا و منتهى: فالمصدر إما هو الله تعالى، أو جبريل عليه السلام، أو الرسول عليه السلام، أو الناس و أما المنتهى فهو الله تعالى، أو الرسول، أو الناس. و الناس إما المؤمنون، أو المنافقون، أو أهل الكتاب، أو ذرية إسماعيل عليه السلام، اثنان منهم، أو ثلاثة، أو أجمعهم. و أهل الكتاب إما اليهود، و إما النصارى، أو كلاهما. فهذه ظواهر الوجوه.

المطلب الثاني: أنواع الخطاب القرآني

لقد قال الشيخ عيسى ابن قاسم في كتابه المسمى (الفتح المحمدي في علم البديع البيان والمعاني): الخطاب في القرآن على أربعين وجها[3]. و قد ذكر الإمام الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن" للخطاب ثلاثة و ثلاثين وجها [4] فأخذ من الكتابين الأوجه التي لم ترد مشتركة فيهما حتى بلغ عددها خمسة و أربعين وجها. و فيما يلي نورد تفصيل تلك الأوجه كلها:

الأول: خطاب الجنس.

كقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[5] فإن المراد جنس الناس لا كل فرد، و إن فمعلوم أن غير المكلف لم يدخل تحت هذا الخطاب، و هذا يغلب في خطاب أهل مكة كما سبق، و رجح الأصوليون دخول النبي صلى الله عليه و سلم في الخطاب بـ﴿ يَا أَيُّهَا النَاسُ﴾

---

[1] سورة الزمر: 53.

[2] الفراهي، عبد الحميد (الإمام): تفسير نظام القرآن و تأويل الفرقان بالفرقات، الهند: الدائرة الحميدية، 2008)، ص 64.

[3] البرهانفوري، عيسى بن قاسم (الشيخ) الفتح المحمدي، في علم البديع و البيان و المعاني، مخطوطه، ص 50.

[4] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت 1433 هـ، 132/1.

[5] سورة البقرة: 21.

الثاني: خطاب النوع.

مثل:﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[1] و المراد ببني إسرائيل بنو يعقوب عليه السلام.

الثالث: خطاب العين.

نحو:﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴾[2].

الرابع: خطاب المدح.

مثل:﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾[3]؛ و لهذا وقع خطابا لأهل المدينة:﴿ الذين آمنوا و هاجروا ﴾[4].

الخامس: خطاب الذم.

نحو:﴿قل يا أيها الكافرون﴾[5] و لما تضمن هذا الخطاب الذم لم يقع في القرآن في غير هذين الموضعين كعكسه في حق المؤمنين.

السادس: خطاب الكرامة.

كقوله: ﴿يا أيها النبي﴾[6]، و ﴿يا أيها الرسول﴾ قال بعضهم: نجد الخطاب بالنبي في محل لا يليق به الرسول.

السابع: خطاب الإهانة.

نحو قوله: ﴿قال اخسؤا فيها ولا تكلمون﴾[7]

وقوله: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾[8]

---

[1] سورة البقرة: 40.

[2] سورة البقرة: 35.

[3] سورة البقرة: 104.

[4] سورة التوبة: 20.

[5] سورة الكافرون: 1.

[6] سورة الأنفال: 65.

[7] سورة المؤمنون: 108.

[8] سورة الإسراء: 64.

الثامن: خطاب التعجيز

نحو:﴿فاتوا بسورة من مثله﴾[1]، و قوله: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[2]، و قوله: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[3].

التاسع: خطاب التشريف

و هو كل ما في القرآن بـ "قل" كالقلاقل [4]، فإنه تشريف منه تعالى لهذه الأمة، بأنه يخاطبها بغير واسطة لتفوز بشرف المخاطبة. وأنت خبير بأن الكلية منفوضة بقوله:﴿قل يا أيها الكافرون﴾ [5].

العاشر: خطاب الاعتبار

كقوله تعالى حاكيا عن صالح لما هلك قومه: ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾[6] خاطبهم بعد هلاكهم؛ إما لأنهم يسمعون ذلك كما فعل النبي صلى الله عليه و سلم بأهل بدر.

المبحث الثالث: مقاصد، أساليب وأنماط الخطاب القرآني

المطلب الأول: مقاصد الخطاب القرآني

تطلق مادة " قصد " القاف والصاد والدال في اللسان العربي ويراد بها المعاني الآتية :

– الاستقامة والاعتدال: ويُقال قَصَدْتُ قَصْدَهُ أي نَحَوْتُ نَحْوَهُ.، ويقال: انقصد السيف أي انكسر وتحطم.

–الإمتلاء والاكتناز: حيث كانت العرب تقول: ناقة قصيدة، أي مكتنزة ممتلئة اللحم، والقصد من الشعر ما تم في سبعة أبيات[7] ، وجاء في لسان العرب أن أصل " قصد " الاعتزام والتوجه والنهوض على اعتدال كان أو جور أو كالواقع بين العدل والجور والقريب والبعيد.

---

[1] سورة البقرة: 23.

[2] سورة الطور: 34.

[3] سورة هود: 13.

[4] هي: سورة الكافرون، و الإخلاص، و الفلق، و الناس.

[5] سورة الكافرون: 1.

[6] سورة الأعراف: 79.

[7] الزحيلي: التفسير الوسيط, , ط1 ,1322هـ, دار الفكر, دمشق.

تعريف المقاصد اصطلاحا:

إن المفاهيم الشرعية يرجع تعريفها عادَّة إلى ما كتبه المتقدمون من العلماء غير أنه بالنظر إلى البحوث والدراسات الشرعية والأصولية المتقدمة يندر أن نجد لها تعريفاً محدداً أو دقيقا للمقاصد يحظى بالقبول القبول والاتفاق من أغلبية كافة العلماء, وإن كان من المسلم به، أنه لم يكن غائباً عن علمائنا المتقدمين العمل بالمقاصد واستحضارها في اجتهاداتهم وآرائهم, فإنه يوجد عدد من الكتب في مقاصد وأهداف السور القرآنية مع ربطها بالواقع المعاصر، وتبني قسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية مثل هذه الدراسة للسور القرآنية في رسائل الماجستير .

أما بالنسبة للدراسات المعاصرة فثمة تعريفات متعددة تتمثل في التالي :

فقد عرفها علال الفاسي فقال: "المراد بمقاصد الشريعة الغاية منها أو الأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها[1]". وجمع الدكتور يوسف العالم –رحمه الله– بين المقاصد والأهداف فقال: "المراد بأهداف الشريعة: مقاصدها التيُ شرعت الأحكام لتحقيقها, ومقاصد الشارع هي المصالح التي تعود على العباد في دنياهم وأخراهم سواء أكان تحصيلها عن طريق المنافع أو عن طريق دفع المضار[2]

المطلب الثاني: أساليب الخطاب القرآني

أساليب الخطاب في طلب الفعل:

- يأتي أحيانا بصريح صيغة فعل الأمر نحو: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾، أو بلام الأمر نحو قوله تعالى:﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾.
- يأتي بنفس فعل الأمر نحو:﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾
- الإخبار بأن الفعل المكتوب على المكلفين، بصيغة الماضي نحو:﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ﴾
- الإخبار عن الفعل بأنه خير:﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ﴾
- وصف الفعل بأنه من البر نحو: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى ﴾

[1] تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم, سميح عاطف الزين, ط2 ,1333هـ-1343م, دار الكتاب اللبناني ,بيروت

[2] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كالم المنان، للشيخ عبد الرحمن السعدي، راجعه له عبد الرؤوف سعد، ط دار الصفا بالقاهرة.

- ترتيب وصف شنيع على ترك الفعل كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ ﴾

أساليب الخطاب في النهي:

أساليب الخطاب في النهي كثيرة منها التالي [1].

- الإتيان بفعل النهي، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ ﴾
- فعل التحريم، كقوله تعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾
- جاء بصيغة نفي الحل كقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ﴾
- النهي عن الفعل بلفظ لا، نحو قوله تعالى:﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾.

المطلب الثالث: أنماط الخطاب القرآني

الخطاب القرآني منظومة اتصالية إبلاغية، تنتج قيما ذات أبعاد معرفية متعددة، ينبهر لها قراء النص المقدس تبعا لمستويات الفهم عندهم. فهو نمط تعبيري خاص، يتكون من اللغة في تراكيبها وأنساقها؛ وبالتالي في دلالاتها و هذا ما يحمل المتلقي على التعامل مع بنية الخطاب على وفق ما يتطلبه سياق الممارسة نفسها، و لا سيما إذا أخذنا بالحسبان أن النص القرآني يظل نصا مفتوحا تتناوله الأجيال المتعاقبة بحسب مرجعياتها الثقافية.

فقد احتوى الخطاب القرآني على قيم كبرى أرسلها الله – عز وجل– إلى البشر في قوالب لغوية بشرية ذات محمولات دلالية متعددة، استطاعت كخطاب أن تثبت قيمها من خلال تشكيلات لغوية منسوجة بشكل بليغ، تواشج بعضها مع بعض.

إن النظرة إلى القرآن الكريم بوصفه فضاء مقروءا، لابد أن تنطلق من منطلق التكامل القرآني، و حتى تصل بالعقل الإنساني إلى درجة الإقناع، و بخاصة بعد أن وصل إلى درجة عالية من التعقيد. إن أي شائبة تشوب تلك النظرة حتما تؤدي إلى انفصالها الكلي عن مجريات الواقع من حولها، لتكون هي في واد و

[1] ينظر: أساليب البيان في القرآن و السنة، ص 49.

التفاعل الإنساني مع العالم في وادي آخر؛ و بذلك تغيب عن الأذهان أهم سمة من سمات تميز الخطاب القرآني؛ و هي أن يكون القرآن الكريم وسيلة لفهم الكون المنظور بالدرجة الأساس، و هذا سر ديمومته و مناسبته لكل الأزمنة الإنسانية على المدى.

1- الخطاب الإقناعي:

إن من أهم الغايات التي أسس لها الخطاب القرآني هو الخطاب الإقناعي؛ و ذلك أن الخطاب القرآني هو في صميمه خطاب ((حقيقة)) يهدف إلى تمكين الحقائق التعليمية التبيينية التشريعية في نفوس المتلقين عن طريق التأثير و الإقناع. لكن ينبغي التنبه هنا إلى أن تحقق هذه الغاية في الخطاب القرآني يختلف عنه في الخطاب الشعري التخيلي، و عن الخطاب الحجاجي الخالص الذي يعتمد المنطق الصوري. إن غاية الأول منصبة على تحقيق المتعة و إثارة القبول على المستوى الجمالي، أما الثاني فمنصبة في تحقق الكلام على الإلزام و الإفحام ليس غير، أما غاية الخطاب القرآني فكانت بقصد الإقناع و الحصول على استجابة المتلقي، دون عنف أو إكراه.

و قد راعى الخطاب القرآني الإقناعي سياق تحققه، سواء سياق وروده أو سياق تلقيه، و ذلك نظرا لما لهما من دور مهم في فهم هذا الخطاب؛ بمعنى أنه يتحتم أن يكون هناك سياق ما للخطاب ليمارس فيه فعله و يؤسس سلطته؛ إذ لا يمكن أن يكون هناك خطاب بدون سياق أو (مناسبة) عامة أو خاصة تعمل على وجوده أو تحققه.

و لنا أن نشير هنا إلى أن بعدي الإقناع و التأثير في الخطاب القرآني لا يبنى —ولا يمكن له أن يبني — على حجة منطقية عقلية خالصة وفق المفاهيم التي سادت في نظريات الحجاج الأرسطي و تطوراتها الحديثة، و التي نجد ظواهرها في الخطاب الحجاجي في مختلف ميادينه، و كنه يؤسس على متكأ سياقي يتعلق بعناصر سياقية خاصة تحكم عملية التواصل و الإقناع بين المرسل و المرسل و المرسل إليه.

إن وظيفة الخطاب الإقناعي هي محاولة جعل العقل يذعن لما يطرح عليه من أفكار، أو يزيد في درجة ذلك الإذعان إلى درجة تبعث على السعي نحو تحقق المطلوب.. و على صعيد آخر يمكن القول بأن الإقناع في ارتباطه بالمتلقي يؤدي إلى خصوص عمل ما، أو الإعداد لتقبله؛ و من أجل هذا ننبه إلى أن فحص الخطابات الإقناعية المختلفة في النص القرآني سيكون بمثابة البحث في صميم الأفعال الكلامية، و أغراضها السياقية، و علاقة الترابط بين الأقوال، و التي تنتمي إلى البنية اللغوية الإقناعية. فوظيفة الخطاب

الإقناعي هي منوطة بطرح الحجج التي تضمن (نفاذية) الخطاب اللغوي، و بالتالي حصول الاقتناع الفعلي بالقضية المطروحة.

فالمتدبر في النص القرآني يجد أن ما يريد فيه من خطابات إقناعية قد بنيت على أصول الواقع الكوني و الإنساني. و هو ما يبدو في استخدام الآيات الكونية مقدمات في الاستدلال على حقائق العقيدة، واستخدام العبر التاريخية باعتبارها وقائع إنسانيــة في الإقناع بما يشير به من تعاليــم تتعلق بمصير الإنســان وغاية وجوده والانطلاق من المصلحة العملية للإنسان في حمله على التسليم بأسس العقيدة الإسلامية.

و إذا كانت الخطابات القرآنية جاءت متناسبة مع قدرات المخاطبين العقلية و العاطفية.. فهذا يدلل على أن الله عز و جل أراد لهذا الكتاب أن يكون رسالة لإحداث التواصل و التحاور ليجسد منهج حياة؛ لذا جعله في تركيبته اللغوية خطابا منطقيا من حيث هو معان متلقاة في لغة يفهمها البشر هي اللغة العربية "من حيث واردة في مبان يدرك منها الناس المعاني المراد تبليغهم إياها، لكن بحسب اصطلاحهم على تأدية المعاني التي يمكنهم أن يدركوها بواسطة المباني التي تتخذها الطبيعة البشرية طريقا للصول إلى هذه المعاني أو إلى تبليغها" [1]. لذلك فإن الصور المنطقية التي استعملها هذا الخطاب ليست كما يبدو للبعض أنها واردة فيه بحسب مدارك النبي صلى الله عليه و سلم، بل إن الصور المنطقية التي استعملها القرآن في صور يستعملها عامة الناس من حيث هم بشر ذوو طبيعة معاصرة لماهية مصدر الخطاب [2].

و من هنا فإننا في النمط الإقناعي من الخطاب القرآني لن نتطرق إلى قضية أن القرآن كلام الله، و أنه جاري كلام العرب، فهذه مسألة خاض فيها علماء الكلام كثيرا، و إنما دافع البحث و مطلبه هو البناء؛ لأننا إذا توقفنا عند هذه الظاهرة و خاصة فيما يتعلق باللغة و تبنينا قاعدة الإعجاز بالصفة التي تقول: "أن اللسان العربي استعمل في القرآن الكريم بوجوه من التأليف و طرق في الخطاب يعجز الناطقون عن الإتيان بمثلها عجزا دائما" [3] فهذا و لا شك سوف يؤدي بنا إلى تكريس المنحنى المنهجي و الذي

---

[1] محمد يعقوبي: (المنطق الفطري في القرآن الكريم)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2000 م،ص ص 37- 38.

[2] المرجع السابق.

[3] طه عبد الرحمن: (تجديد المنهج في تقويم التراث) المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، بيروت 1994 م، ص 255. نقلا عن: آمنة بلعلى: "الإقناع المنهج الأمثل للتواصل و الحوار نماذج من القرآن و الحديث"، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، عدد 89، محرم 1424 هـ- مارس 2003 م، ص 209.

يفضي بنا –لا محالة– إلى عدم الوصول إلى نتائج معينة، و بالتالي نقع في النظرة التفاضلية التي هي منهج من يفرض الحقائق على العقول فرضا، فتستهجن الحقائق في الوقت الذي تستهجن فيه المنهج [1].

ومن بدائع التعبير القرآني في سياق استخدام الخطاب القرآني الاستمالات العقلية المنطقية أننا نجده يقيم الحجة، و يبرهن عليها حتى تستقر في النفس، و يتقبلها الحس و الوجدان، و حتى يتم بها التأثر ويتحقق لها التأثير بصورة أكثر عمقا و أكثر نفاذا. و غالبا ما يأتي هذا الاستخدام في سياق إبطال دعاوى الكفار و القضاء عليها، و في سياق البرهنة العقلية على وجدانية الله عز و جل، فمن ذلك على سبيل المثال قول الله تعالى:

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [2].

فلتنظر كيف يواجههم السياق القرآني، بسخف معتقدهم هذا، إنه يقيم الحجة الدامغة، و البرهان المنطقي ليبطل دعواهم، يواجههم بكلمة معترضة بالغة الدقة و العذوبة، بقوله تعالى: (وَخَلَقَهُم)" و هي لفظة واحدة و لكنها تكفي للسخرية من هذا التصور، فإذا كان الله سبحانه و تعالى هو الذي خلقهم فكيف يكونون شركاء له في الإلوهية و الربوبية؟" [3].

بل لم تكن تلك وحدها دعواهم فأوهام الوثنية متى انطلقت لا تقف عند حد من الانحراف، بل كانوا يزعمون له سبحانه بنين و بنات. و الناظر لكلمة (وَخَرَقُوا) التي تأتي بمعنى اختلقوا، يجد في لفظها ما فيه من جرس و ظل خاص؛ يرسم مشهد الطلوع بالفرية التي تخرق و تشق. فقد خرقوا لع بنين، عند اليهود عزيز، و عند النصارى المسيح، و خرقوا له بنات عند المشركين الملائكة و زعموا أنهم إناث ... فالادعاءات كلها لا تقوم على أساس من علم، فكلها بغير علم، سبحانه و تعالى عما يصفون. ثم يواجه فريتهم هذه وتصوراتهم بالحقيقة الإلهية و يناقشهم في هذه التصورات بما يكشف عما فيها من هلهلة. لأن من يبدع هذا الوجود إبداعا من العدم لا حاجة له إلى الخلف؛ و الخلف إنما هو امتداد الفانين، و عون الضعفاء، و لذة من لا يبدعون .

و من الخطابات القرآنية المدعومة بالبراهين المنطقية المؤكدة على وجدانية الله سبحانه قول الله تعالى:

---

[1] ينظر آمنة بلعلى: "الإقناع المنهج الأمثل للتواصل و الحوار..."، مجلة: التراث العربي، مصدر سابق، ص 209.

[2] سورة الأنعام، الآية 100.

[3] سيد قطب: (في ظلال القرآن)، مجلد 2، ج 7، ص 1162.

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [1].

و من النماذج التي استطاع من خلالها النص القرآني الإقناعي أن يؤثر على مدارك المعنيين بخطابه، و يستميل العقول طيلة فترة الاستماع إليه في حالة الإلقاء أو النظر و القراءة من أجل الاقتناع بمقاصده، و الانخراط في الحركة الفكرية الكامنة فيه، و هذا ما تجلى في قول الله تعالى:

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنْ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (21) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [2].

و من الخطابات الرائعة التي عالجها النص القرآني و وقف حيالها كثيرا، خطابه الموجه إلى قلوب المشركين الجاحدين بالدعوة، فقد عالج القرآن هذه المسألة بطريقة بالغة الروعة و الدقة؛ إذ توجه إلى قلوبهم الجامحة الشاردة مع الهوى، المغلقة دون الهدى و هو يواجهها بآيات الله القاطعة العميقة التأثير و الدلالة، و يذكرهم عذابه، و يصور لهم ثوابه، و يقر لهم سننه، و يعرفهم بنواميسه الماضية في هذا الوجود، و مصيرهم المحتوم إذا هم لم يستجيبوا لهديه و توجيهه، يقول الله تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[3].

أما عن نموذج الاستخدام الثاني للخطاب الإقناعي في النص القرآني و الذي يأتي عبر طريق مخاطبة الوجدان ترغيبا و ترهيبا، فإن القرآن الكريم احتفى بهذه الوسيلة أو الاستمالة الوجدانية بشكل كبير لما لها من أثر عاطفي قوي و فعال، سواء عن طريق التحبيب برضى الله تعالى، و نوال الأجر بدخول الجنة و الخلاص من النار، أو الترهيب بالتخويف من سخط الله و الحرمان من الأجر بالمنع من الجنة و دخول النار.

---

[1] سورة البقرة، الآيات 163-164.

[2] سورة الأنبياء، الآيات 21-22.

[3] سورة الجاثية، الآية 21.

و من نماذج الترغيب نختار بعضا مما حمله الخطاب القرآني من التوجيهات الخاصة للمخاطبين بقصد ترغيبهم و حضهم على فعلها كما هو حاصل في فعل الجهاد و الإغراء بالاستشهاد في سبيل الله تعالى، نظرا للقيمة العظمى للجهاد، و لمكانة الشهداء عند الله تعالى، كما فو قول الله تعالى: ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [1].

و لا شك أن قوله تعالى: (فِي سَبِيلِ الله أَمواتٌ) فيه ما فيه من التشريف و التعظيم الذي سيطال هؤلاء المجاهدين لكونهم في سبيل الله سبحانه أولا، و بإضافتهم إليه ثانيا، و هذا دعوة لكل مخاطب من المسلمين بأسلوب الإقناع و الترغيب في الاستشهاد في سبيل الله تعالى، و أن بيان مكانة و فضل الشهداء لهم، ما هو إلا دفع لهم للفوز بشرف هؤلاء الشهداء.

وإن المتأمل لسياق الخطاب القرآني يجده يعرض مشهدا متراكب المعاني، بالغ الدقة في الروعة و الأداء؛ حيث تجسد المشهد القرآني في صورة الفلك و هي تمخر في عباب البحر، نموذجا للحظات الشدة و الحرج، لأن الشعور بيد الله في الخضم أقوى و أشد حساسية، و نقطة الخشب أو المعدن تائهة في الخضم، تتقاذفها الأمواج و التيارات و الناس متشبثون بهذه النقطة على كف الرحمن.

إنه مشهد لا يحس به إلا من كابده، و خفقت به القلوب الواجفة المتعلقة بكل هزة و كل رجفة في الفلك، صغيرا كان أو كبيرا... و التعبير يلمس القلوب لمسة قوية و هو يشعر الناس أن يد الله تزجى لهم الفلك في البحر و تدفعه ليبتغوا من فضله (إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)، فالرحمة هي أظهر ما تستشعره القلوب في هذا الأوان.

هكذا بني القرآن خطابه الإقناعي على أصول الواقع الكوني و الإنساني، و هو ما يبدو في استخدام الآيات الكونية مقدمات في الاستدلال على حقائق العقيدة، و استخدام العبر التاريخية باعتبارها وقائع إنسانية في الإقناع، بما يشير به من تعاليم تتعلق بمصير الإنسان و غاية وجوده، و الانطلاق من المصلحة العملية للإنسان في حمله على التسليم بأسس العقيدة الإسلامية.

ولهذا جاءت صورة هذه الخطابات متوافقة تمام التوافق مع أحوال المخاطبين؛ فقد جاءت متناسبة مع أحوال الناس جميعا، على مختلف توجهاتهم الفكرية و العقدية من مؤمن و كافر و منكر و جاحد. كما أنها

[1] سورة البقرة، الآية 154.

جاءت متدرجة في عرضها، معتمدة على تقديم البراهين العقلية المقنعة، التي تدعو الناس إلى التدبر و التفكر و إعمال الفكر في الوصول إلى هدفها المنشود؛ و هو في الغالب ما يكون إثبات وحدانية الله و قدرته، مستخدمة الأدلة الملموسة التي لا مجال للتشكيك فيها.

2- الخطاب الحواري:

الخطاب الحواري هو النموذج الأمثل لكل سمة خِطابية. فهو نمط حياة و أسلوب تفكير، و صيغة متقدمة من صيغ التواصل و التفاهم، و منهج من مناهج الوعي و الثقافة، و وسيلة من وسائل التبليغ و الدعوة؛ استعمله البلغاء و الفصحاء في صناعتهم، و عمدت إليه الشعوب في تواصلها و تفاعلها مع غيرها ممن يحيك بهم، واختطه المفكرون و المربون أسلوبا و منهجا في تعليمهم، و اعتمده الأنبياء و الرسل و المصلحون في دعوة الناس إلى الخير و الفضيلة و الرشاد.

و مع إفرازات النظام العالمي الجديد —سواء على صعيد الثقافة و القيم، و أعلى صعيد السياسة و الاقتصاد- تزايد الاهتمام بالحوار، و تعمق الاقتناع به و بدوره في تحقيق وفاق ثابت بين أبناء الأمة الواحدة، و تفاهم مشترك بين الشعوب المختلفة على أساس قاعدة الكرامة و العدالة و المساواة، حتى شاع استخدام الحوار على مختلف الصُعُد، و في شتى الميادين: الثقافية و الفكرية و الحضارية.. فأصبح أحد الظواهر المهمة للعصر الحالي، الذي يميز بثورة المعلوماتية و الاتصال، و التي هي إحدى ثمرات العلم المتفجرة عنه و بهذا قوى التواصل بين بني البشر، و اتسعت دائرة الحوار، و تنوعت موضوعاته بصورة لم تعرفها الإنسانية من قبل.

و من خلال هذه المعطيات يبرز دور الحوار و تظهر أهميته في تأسيس صيغة معرفية متجددة تعتمد تزاوج الأفكار، و تبادل الرؤى، و تداول الطروحات، و الكشف عن مواطن الاتفاق و مسارات الاختلاف.. من خلال سماع الرأي و الرأي الآخر، و الإصغاء إليه و الاهتمام به، تحقيقا للتواصل العلمي و المعرفي، و ابتعادا عن العزلة و الانكفاء الذي لم يبق لهاما مكان في عالم اليوم.

و لقد تأكدت حقيقة الاختلاف بين الأمم في القرآن الكريم، و شغلت حيزا كبيرا في كثير من نصوصه و آياته المقدسة، فقال الله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً

وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48)﴾[1].

و قول الله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19)﴾ [2]. و قول الله تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (93) ﴾[3].

من أجل ذلك دعانا القرآن الكريم إلى التعامل مع هذه الحقيقة من خلال الخطاب الحواري، بل و اعتبره قاعدته الأساسية في دعوة الناس إلى عبادة الله و الإيمان به، و في تعامله مع كل: قضايا الخلاف بينة و بين أعدائه. و كما أنه لا مقدسات في التفكير، كذلك لا مقدسات في الحوار؛ إذ لا يمكن أن يُغلق باب من أبواب المعرفة أمام الإنسان، لأن الله جعل ذلك وحده هو الحجة على الإنسان في الطريق الواسع الممتد أمامه في كل المجالات المتصلة بالله و الحياة و الإنسان[4].

فالحوار وجه من وجوه الإعجاز في النص القرآني، و من ثم لم يكن مستغربا أن يوليه أهمية كبرى باعتباره من بين الأساليب المنطقية الدقيقة في تقرير الحقائق و إيصال الأفكار و توضيح المسائل العقائدية. غير أن الأسلوب المنطقي يمتزج في القرآن بالأسلوب العاطفي المثير دون أن يكون ذلك على حساب أدلته و براهينه، و أما ما جاء فيه موافقا لبعض الأقيسة المنطقية في المحاجة فلا يعني أن القرآن يخضع حججه للقواعد التي اصطلح عليها علماء المنطق لأن للقرآن منطقه الخاص.

و لقد كانت محاورة الله سبحانه و تعالى مع الملائكة من المحاورات الفريدة التي تختلف عنت سائر المحاورات القرآنية الأخرى، فهي نموذج أعلى للإرشاد و القدرة و التوجه، حيث جعل الله سبحانه و تعالى من ذاته معلما و مثلا أعلى يقتدي به في مثل هذه المحاورة فيقول:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ

---

[1] سورة المائدة، الآية 48.

[2] سورة يونس، الآية 19.

[3] سورة النحل، الآية 93.

[4] محمد حسين فضل الله: (الحوار في القرآن)، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، ط3، بيروت 1985 م، ص 32.

عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (33) ﴾[1].

ففي هذه المحاورة المنعقدة بين الله تعالى و ملائكته تجد نوعا من التخيل بإبراز المعاني المنقولة بالصور المحسوسة بقصد تقريبها للأذهان و كما جاء في تفسير المنار: "إن هذه الآيات من المتشابهات التي لا يمكن حملها على ظاهرها لأنها بحسب قانون التخاطب إما استشارة و ذلك محال على الله تعالى، وإما إخبار منه سبحانه و تعالى للملائكة و اعتراض منهم و محاجة وجدال، و ذلك لا يليق بالله سبحانه و تعالى أيضا و لا بملائكته، و لا يجامع ما جاء به الدين من وصف للملائكة ككونهم: (لا يَعْصُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ"[2].

و لكن القارئ و السامع لهذه الآيات قد يتبادر إلى ذهنه ثمة معارضة من الملائكة لله تعالى على خلقه و قراراته، و الواقع ليس كذلك؛ بل هو مجرد اختلاف في الرأي مع اله سبحانه و تعالى، و ما كان لهم أن يضعوا أنفسهم في هذا الموقف مع الخالق سبحانه، و لكن الله وضعهم فيه ليعطي من خلالهم لمخلوقاته دروسا في الشورى التي هي واجب على ولي الأمر، فجعل المولى عز و جل ذاته طرفا في حوار يختلف فيه الرأي مع الملائكة في خلق آدم عليه السلام.

ومن الخطابات الحوارية التي اعتمدت الأسلوب الوصفي التصويري في بز رؤيتها، حوار سيدنا موسى –عليه و على نبينا أفضل الصلاة و السلام– لفرعون في قول الله تعالى:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ الأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ (29)﴾[3].

---

[1] سورة البقرة، الآية 30-33.

[2] محمد رشيد رضا: (تفسير القرآن الكريم)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج1، القاهرة، 1990 م، ص 210.

[3] سورة الشعراء، الآيات 23- 29.

يأتي هذا الخطاب الحواري في سياق مشهد التساؤل و الاستفسار، و فيه يتوجه فرعون بالسؤال عن صميم دعوة سيدنا موسى، و لكن في تجاهل و سوء أدب في حق الله الكريم. يسأل قبحه الله: أي شيء يكون رب العالمين الذي منحك الرسالة؟ و هو سؤال المتنكر للقول من أساسه، المتهكم على القول والقائل، المستغرب للمسألة كلها حتى ليراها غير ممكنة التصور، غير قابلة لأن تكون موضوع حديث ! فيجيبه موسى –عليه السام– بالصفة المشتملة على ربوبيته تعالى للكون المنظور كله: (قَالَ: رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ)..

ومن نماذج الخطابات القرآنية التي استجابت لإشكالية الحوار مع الآخر من خلال بنيتها المنطقية البرهانية، محاورة نبي الله نوح –عليه السلام– مع قومه حول وحدانية الله المؤسسة لمحور العقيدة و السلوك لدى المخاطبين المعاندين المستكبرين من قومه، و هو ما تجلى في الخطاب الحواري الطويل نسبيا في قول الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (30) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنْ الظَّالِمِينَ (31) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ (32) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34) ﴾[1].

انطوى هذا النص القرآني الكريم على مرجعية سلوك بنى في مواجهة مثالب قومة بقصد الكشف عن الحقيقة و إظهار الحق و إحقاقه عن طريق الحوار العقلاني البناء. فقد حمل سيدنا نوح –عليه السلام–

[1] سورة هود، الآيات 25– 34.

رسالة من ربه إلى قومه بهدف دعوتهم إلى الصلاح و الأخذ بأديهم إلى طريق الرشاد. من أجل ذلك جاء موضوع هذه الرسالة محددا في غاية من الإيجاز و الوضوح و التميز، مما يدل على حرص نبي الله نوح على تحقق هدفه في قومه، و هو قول الله تعالى: (ألا تعبدوا إلا الله)، فوحدانية الله إذن هي القضية المحور التي يدور حولها الصراع بين نوح و قومه.

ومن بين صنوف الخطابات الحوارية التي احتفى بها القرآن الكريم و اهتم بطرحها نظرا لأهميتها في بث القيم الخلقية و التربوية.. حوار سيدنا إبراهيم عليه السلام، و بين والده آزر. لقد كان والد سيدنا إبراهيم في مقدمة عابدي الأصنام، بل كان ممن ينحتها و يبيعها، و قد عز على إبراهيم فعل والده الذي هو يومئذ أقرب الناس إليه، فرأى من واجبه أن يخصه، و أن يحذره من عاقبة الكفر؛ فخاطبه بلهجة تسيل أدبا ورقة، مبينا بالبرهان العقلي بطلان عبادته للأصنام، قال الله تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً (41) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً (43) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدْ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنْ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً (46) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً (48)﴾[1].

إن حوار النبي إبراهيم –عليه السلام– مع أبيه يسترعي الانتباه لما يحتويه من لهجة حانية بارة يبديها الابن النبي تجاه أبيه لمعاند غليظ القلب. فأول ما يستوقفنا في حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه الطريقة التي سلكها إبراهيم –عليه السلام– في محاولة إقناعه، و جعله يرتد إلى الرشد و الصواب، فلقد حاكمه إلى مقدمات مسلمة، و أدلة يقر بها و لا يستطيع دفعها.

3– الخطاب القصصي: الخطاب القصصي من أهم الفعاليات التواصلية في التأثير على النفوس و السيطرة على الأفئدة، فهو يشكل عاملا مهما في إنجاح أية دعوة من الدعوات التي يراد بثها و إبلاغها للمخاطبين. و لقد استخدم القرآن الكريم الخطاب القصصي في كثير من المواقف، بوصفه أداة من أدوات

[1] سورة مريم، الآيات 41–48.

التبليغ و الدعوة الإسلامية، و التي يناط بها التبصر بمبادئ الدعوة و الكشف عن مقاصدها في نفوس المخاطبين، فقد شغل الخطاب القصصي حيزا كبيرا من النص القرآني، وامتزجت موضوعاته بموضوعات القرآن الكريم امتزاجا قويا لا يمكن فصله، و ذلك لأن القرآن كله –بما فيه من قصص– يمثل كلا واحدا، سواء في موضوعاته أم في أسلوبه أم في مقاصده. غاية الأمر أن القصة تتناول الموضوع القرآني تناولا فنيا، و هذا لا يعني أن الفن هو المراد الأول لتحقيق هذا الهدف السامي، بل هي إحدى وسائل القرآن لتحقيق مبادئ الدعوة و التمكين لتعاليم الدين في النفوس[1].

إذن، فهذه الظاهرة تعد من خصوصيات النص القرآني ككل، لأنه لا يجمع (نصوصه/آياته) في شكل مواد معينة أو موضوعات محددة، فيرتبها حسب مضامينها بمعنى أنه لا يطرحها في إطار حقول (موضوعاته) حسب الأهمية أو التسلسل المركزي الموضوعي خاصة. فإذا كانت المواضيع التي يطرقها كثيرة – و هي بالفعل كذلك– إلا أنها تأتي مبثوثة في ثنايا الكتاب الكريم ككل..

فالخطابات القصصية في القرآن الكريم تتموضع في تشخيص نموذجي حي لكل موضوعاته. و إن كانت لا تفصل في ذلك و لا تفيض؛ فلأنها ليست للتشريع بقدر ما هي للعبرة و الحكمة و العظة والتدبر و التذكر و إزالة الغفلة.. فالقصة القرآنية هي قصة لها أهدافها التي تتلاءم مع مقاصد الكتاب الكريم. فلأن القرآن الكريم كتاب دعوة لا كتاب تاريخ لا تأتي القصة فيه جملة واحدة في مكان واحد، بحيث تستخلص منها حوادث التاريخ مرتبة حسب وقوعها، و لكن للقصة فيه هدفا آخر غير الفن و التاريخ.. و إن تحقيق هذا الهدف يقتضي عدم الاستغراق في تفاصيل القصة بما يزيد عن الحاجة، و أن تتركز أحداثها على ما جيء بها شاهدا عليه و لأجله[2].

فالقرآن كتاب دعوة، و القصص فيه وسيلة من وسائل الدعوة، تأتي لتحقيق أهداف و تسعى لنشدان غايات كما في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ

---

[1] ينظر: محمد عبد الله عبد دبور: (أسس بناء القصة من القرآن الكريم– دراسة أدبية و نقدية)، رسالة عالمية– دكتوراه مخطوطة، كلية اللغة العربية بالمنوفية، جامعة الأزهر 1417 هـ– 1996م، ص 24.

[2] ينظر: محمد كاظم الظواهري: (بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم)، دار الصابوني، و دار الهداية، ط1، القاهرة 1412 هـ– 1991 م، ص 41.

الْحَكِيمُ﴾[1]. و قول الله تعالى:﴿ فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2]. و قول الله تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (120) ﴾[3]. و قول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)﴾[4].

و مما سبق يلحظ أن الحق و الموعظة و الذكرى هي السمات البارزة المكونة لهذا القصص القرآني العظيم، و من ثم فهي تتطلب متلق من نوع خاص، متمكن من أدواته التي تسعفه على رؤية و قراءة الحق و الموعظة و الذكرى، من خلال الطبيعة التي تتمتع بها القصة في السرد القرآني.

و هنا ينبغي التنبيه على متتبع الخطابات القصصية في القرآن الحكيم بأنه سوف يجد أن ثمة قصصا يرد أكثر من مرة في مواضيع مختلفة، و آخر يرد ذكره مرة واحدة فقط، و أن النوع الأول يأتي في كل مرة يذكر فيها بشكل مختلف، كما نرى في قصص: آدم و نوح و هود و صالح و لوط و شعيب و موسى عليهم السلام.. و فيها جميعا نجد نواة وظيفة تتكرر، ثم تتوالى القصص بعد ذلك: يأتي الهدى من الله، فيتبعه الناجون، و يكذب به الهالكون.

فالقصة القرآنية تمتزج بموضوع السورة امتزاجا عضويا، لا مجال فيه للفصل بينها و بين غيرها من مجموع موضوعات السورة.. تلك السلسلة من الحلقات المختلفة شكلا، المتناغمة مضمونا، المتناسقة بناء، المتكاملة إيقاعا.. بحيث لو حذفنا القصة –أو قل مشهدا من مشاهدها– من موقعها الوارد في السورة لحصل عدم توازن الموضوعي، و لاختل المعنى؛ لأن القصة تسهم في بيان مضمون النص و إيضاح معاني الخطاب و تعميق فكرته لدى المتلقي.. في جمال أسلوبي و رونق تعبيري و روعة لغوية و وحدة عضوية في إعجاز متكامل.و

والهدف الذي تأتي من أجله القصة –من قصص النبي الواحد– يجعلها تختلف في كل مرة في بنيتها الوظيفية؛ فيكون التركيز على وظائف دون غيرها، و يكون بحضور وظائف أو غياب أخرى، مما يؤثر في

---

[1] سورة آل عمران، الآية 62.

[2] سورة الأعراف، الآية 176.

[3] سورة هود، الآية 120.

[4] سورة يوسف، الآية 111.

متتالية الوظائف، فيجعلها بالتالي قصة جديدة في كل مرة [1].

فالخطابات القصصية في النص القرآني لم تكتف بإثارة الذائقة الجمالية في وجدان المتلقي بوجود العرض و جمال الأسلوب و قوة العاطفة و نشاط الخيال، بل تضمنت الكثير من الأبعاد و التصورات و الرؤى التي تتعاطى مع الإنسان بوصفه مرتكزا أساسا يدور حوله الكون.

و من النماذج القصصية التي حملت خطابات توجيهية نحو آفاق عقائدية عن طريق التخويف والإنذار قول الله تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103) ﴾[2].

كما نرى نماذج لذلك في قصة أهل سبأ الذين قال الله تعالى في شأنهم: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (17)﴾[3].

فلا شك أن هذا المنحى الذي عرض له الخطاب القرآني يسهم إسهاما قويا و فعالا في توجيه المخاطبين أخلاقيا؛ إذ نلمح في هذه المشاهد المعروضة آفاقا أخلاقية، تهتم بصياغة السلوك المستقيم و ترسم له الخطوط العريضة، و تضع النماذج الحية على المستوى الفردي و الاجتماعي. بينما تكافح كل سلوك منحرف، و تعرض بعض نماذج الانحراف و المنحرفين، ثم تتعرض تلك القصص للحديث عن النتائج العاجلة و الآجلة لأولئك الأشخاص من أهل الاستقامة أو الانحراف، و ما آلت إليه أمورهم في نهاية المطاف.

---

[1] ينظر: د. محمد مشرف يوسف خضر: "خصائص السرد القصصي في القرآن الكريم"، مجلة: حراء، مجلة علمية ثقافية فكرية، تصدر كل شهرين من تركيا، عدد 6، يناير-مارس 2007م، ص 57-58.

[2] سورة هود، الآية 100-103.

[3] سورة سبأ، الآية 15-17.

و من الآفاق المقاصدية التي أسسها الخطاب القصصي القرآني و عمل على تأكيدها المنحى الاجتماعي و دوره في حياة الأفراد و الأمم. فمعروف أن القرآن الكريم يؤسس للنموذج الأمثل للحياة الاجتماعية بكل عناصرها، و أنه يعمل على طرح رؤاه في توافق عجيب يتطابق مع القوانين و النظريات التي يقول بها علماء العلوم الاجتماعية في العصر الحديث.

و من حيث الرؤى التي تصلح نموذجا حيا لهذا التوجه ما ورد في قصة أصحاب الجنة التي ورد ذك ها في سورة القلم، و التي تحض على التكافل الاجتماعي الذي أكد عليه القرآن الكريم و ضرب له الأمثال. قال الله تعالى:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ (21) أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ (22) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23) أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33) ﴾[1].

يسوق الخطاب هذه التجربة إلى قريش من واقع البيئة، و مما هو متداول بينهم من القصص، فيربط بين سنته في الغابرين و سنته في الحاضرين؛ و يلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم. و في الوقت ذاته يشعر المؤمنين بأن ما يرونه على المشركين من كبراء قريش من آثار النعمة و الثروة، إنما هو ابتلاء من الله له عواقبه و نتائجه. فسنته أن يبتلي بالنعمة كما يبتلي بالبأساء سواء. فأمام المتبطرون المانعون للخير المخدوعون بما هم فيه من نعيم، فذلك كان مثلا لعاقبتهم ... و أما المتقون الحذرون فلهم عند ربهم جنات النعيم. و هذا مثل ضربه الله لكفار قريش، فيما أنعم يه عليهم من إرسال الرسول العظيم الكريم إليهم؛ فقابلوه بالتكذيب و المخالفة.

و لا يخفى ما في القصة من إشارة إلى أن الله تعالى يهتم بتقوية الأواصر الاجتماعية بين أفراد المجتمع

[1] سورة القلم، الآية 17-33.

الفقراء منهم و الأغنياء المترفين، و اختيارهم بالثروة، و الإنفاق على المساكين، و إعطاء كل ذي حق حقه، و مادامت السنن الإلهية في الحياة واحدة، فيجب إذن أن يعتبر الإنسان بالآخرين، سواء المعاصرين له أو الذين سبقوه، فهذه قصة أصحاب الجنة يعرضها الوحي لتكون أحداثها و دروسها موعظة و عبرة للإنسانية.

و من الموضوعات المهمة التي طرقها الخطاب القرآني بشكل غير مباشر بعيدا عن الخطابية و التقريرية قضية الجهاد في سبيل الله، إذ يشخصها القرآن الكريم بصورة حركية حية، يتوسل فيها الخطاب القصصي بالارتكاز على الأحداث التاريخية و التعابير التصويرية المعتمدة على الحركة الإنسانية.. كما في قصة طالوت و جنوده التي تعرض للموضوع من خلال إفراغه في قالب من الأحداث الواقعية و المشاهد التاريخية و الشخصيات الحية التي تحث على الجهاد، و تنفر من الركون إلى الدنيا؛ و لكن كما أسلفنا بطريقة تعتمد السرد القصصي الذي يحلل المسألة و يتناولها دون اللجوء إلى المنطق الشرعي المباشر المعتمد على الترغيب و الترهيب. يقول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنْ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلاَئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (248) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ

بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251)﴾ [1].

فالذين اغترفوا من النهر و شربوا منه كما شاءوا، فاعلين ذلك من تلقاء أنفسهم، دون الانصياع لأمر نبيهم والذين تهيبوا لقاء جالوت و جنوده، بحجة عدم قدرتهم على محاربتهم و نزالهم، هؤلاء و هؤلاء هم أنموذج المتثاقلين إلى الأرض الراغبين في العيش المريح و الحياة السهلة، و الزاهدين في الجهاد، والمتقاعدين عن الخروج في سبيل الله، و الانتصار لأنفسهم و لدينهم... و لذلك ذكروا في بداية القصة للإشارة لفعلهم، ثم أنكرهم النص القرآني على مستوى الحكي، كما أكر وجودهم ضمن الطائفة المؤمنة، فهم كما قال لهم طالوت: (فليس مني)، و كذلك كان الأمر سرديا؛ لأن الآية ذهبت مباشرة لسرد الأحداث المتعلقة بمن اتبع أوامر طالوت، فجاء قول الله تعالى نفيا لوجودهم: (فلما جاوزه هو و الذين آمنوا معه)، ثم أعقب ذلك حديث الفئة الأخرى التي قالت: (لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ)، ثم جاء الحديث عن الفئة التي قالت: (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)، و أنكر الآخرين، و كأن لا وجود لهم. و بهذا جاء السياق مباشرة على الشكل التالي: (وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)، و خاضوا غمار المعركة، و لم يتخل الله عنهم، و لم يدعهم لأنفسهم، فذكروا على مستوى النص و على مستوى الواقع... و لم يتركهم لعدوهم الذي يفوقهم عدة وعتادا، بل كان معهم ليتحقق لهم النصر بهزيمة جالوت و جنوده.

وعليه، فإن حضور هذه القصة في فضاء النص القرآني بهذه الكيفية يفرض مستويين من التلقي، مستوى بسيط تبدو فيه القصة و كأنها حكاية تاريخية لا يعني موضوعها أحدا ممن يتلقاها، و إنما هي في ظنه مجرد حكاية تروي أحداثا عن قوم اختلفوا مع نبيهم، أو تحكى عن معركة وقعت بين فئتين. أما المستوى الثاني فهو المستوى العميق للتلقي و الذي فيه يظهر المتلقي و قد فهم الخطاب القرآني، واستوعب كيفية أدائه اللغوي و طرائق تبليغه، و مستويات تناوله لدين الله تعالى. فهو يعلم تمام العلم أن القصة في القرآن جاءت أساسا لتشخيص مشاهد كثيرة أخرى وردت في شكل وعظي يحمل الترغيب والترهيب المباشرين.

إذن، الخطاب القصصي في الفضاء القرآني لا يمكن أن يأتي منعزلا عن موضوع السورة التي يرد فيها

[1] سورة البقرة، الآية 246-251.

و إنما يمتزج امتزاجا عضويا لا مجال فيه للفصل، و ما بدا بينه و بينها من اختلاف فهو اختلاف شكلي متناغم مضمونا، و متناسق بناء، و متكامل إيقاعا، بحيث لو حذفنا القصة من موقعها الوارد في السورة – أو قل مشهدا من مشاهدها- لحصل دم توازن موضوعي و لاختل المعنى؛ لأن القصة تسهم في إيضاح المضامين النصية لمعاني الخطاب، و من ثم تعمل على تعميق فكرتها لدى المتلقي.

4- الخطاب الساخر:

بداية يمكن توصيف الخطاب الساخر بأنه فعل انتقادي يأتي في سياقات نصية؛ غايتها الفضح و التندر من الخارج عن المألوف، و الهزء من القبح و الهجاء من التسلط و الاستبداد. و هو تنفيس ذهني و نفسي لما يصاب به الناس من أعطاب قد تحيلهم إلى ذوات متصدعة تشكو القلق و الكبت و التوتر؛ فيكون من باب التعويض، و عودة الثقة بالنفس، و نشدان الأمل المفقود.

و حين ننظر للخطاب الساخر في القرآن الكريم نجده قد احتل مساحة ليست بالقليلة في متنه، بل إنه شكل أهم الوحدات البانية لفضائه. و إذا كان الحديث هنا منفعل بالخطاب الساخر بوصفه أسلوبا من أساليب التعبير القرآني و وجه من وجوه مخاطباته؛ فإنه ينبغي علينا أن ننبه إلى أن كل ما يصدر عن هذا الكتاب العظيم –الذي يستمد عظمته من عظمة منزله- من وجوه المخاطبات و أساليب الكلام، لابد و أن يكون له نسق فريد لا يختلط بغيره، و لا يرقى إليه خطاب سواه بكل ما تحمل لفظة الرقي من المعاني و الدلالات. من هنا كان لابد أن يكون الخطاب الساخر قد اكتسب طابعا خاصا مستمدا من خصوصية النص القرآني الذي حل فيه من حيث: الأهداف و الغايات، و الأساليب و الخصائص... و ما يتركه في نفس المخاطب من الآثار التي تحمله على الخضوع و الإذعان طواعية و إجلالا.

و عليه، فإن القرآن الكريم حين استخدم هذا النمط التعبيري لا يريد منه إلا الجانب المشرق، الذي يهدف إلى الإصلاح و التهذيب، و الدعوة إلى نبذ كل ما لا يليق بالإنسان الذي أكمه الله تعالى بالعقل. لذلك فلم يقتصر القرآن الكريم في استخدام هذا الأسلوب على الأعداء فقط، بل إنه –أحيانا- يستخدم الأسلوب نفسه مع المسلمين حملة الدعوة؛ و ذلك عندما يقترفون ما من شأنه أن يمس دينهم، أو يكون عقبة في طرقهم إلى الله تعالى، و ما ذلك إلا أن القرآن الكريم كتاب دعوة و هداية للبشرية كلها، و وسيلة لردع المتجافين عن إتباع الحق و الفطرة السليمة.

إن دواعي استخدام القرآن الكريم للخطاب القرآني كنسق تعبيري لا يمكن النظر إليها نظرة ضيقة

محددة المدى، و إنما ينظر إليها في الإطار العام لأهداف القرآن الكريم ... و حينئذ تجد أنها ترد في صور متعددة، و تهدف إلى غايات كثيرة، و تحقق أكثر من مقصد... [1].

و حتما، في ظل هذه الغايات الكثيرة و المقاصد المتعددة سوف نخضع العينة المدروسة من النماذج القرآنية الدالة إلى عنصر الانتقاء و الاختيار، حتى لا يستطيل منا المبحث، فيحيد عن مساره الذي رسم له سلفا. فمن هذه النماذج المختارة قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (93)﴾ [2].

تبرز السخرية واضحة في هذا الخطاب القرآني من هؤلاء المخاطبين في قول اله تعالى: (قل بئسما يأمركم به إيمانكم)، حيث تتجلى سخرية الخطاب و تهكمه في إضافة الإيمان إلى ضمير الكفار[3]، و كأنه سبحانه يريد أن يثبت أن لهؤلاء إيمانا ينتفع به، و يأمرهم بهذه الأفعال، مع أنه سبحانه و تعالى يعلم أنه لا إيمان لهم البتة، و أن الإيمان الحق لا يأمر بالكفر و الضلال، لكنه لما أراد إقامة الحجة عليهم[4]، و الإفصاح عن حقيقة ما انطوت عليه نفوسهم من الكذب، و النفاق، و ادعاء الإيمان بما أنزل الله تعالى، أخرج الكلام في صورة من له إيمان يأمره بمثل هذه المعاصي، و على رأسها عبادة العجل، خروجا بالكلام عن مقتضى الحال؛ إذ أن الإيمان من شأنه أن يأمر بالخير و ينهى عن الشر، لكنه أراد بهم غاية السخرية و التهكم. يقول الشهاب الخفاجي: "و الإيمان إنما يدعوا إلى عبادة من هو غاية في العلم و الحكمة، فالإخبار بأن إيمانهم يأمرهم بعبادة ما هو في غاية البلادة، غاية في التهكم و الاستهزاء"[5].

و نسبة الأمر إلى الإيمان هنا تبرز في كونه الباعث على الفعل؛ فشبه بالآمر به كقول اله تعالى: (إِنَ

---

[1] ينظر: د. عبد الحليم حفني: (أسلوب المحاورة في القرآن الكريم)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987 م، ص 27.

[2] سورة البقرة، الآية 93.

[3] أبو حيان الأندلسي: (محمد بن يوسف): (البحر المحيط)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود –الشيخ علي محمد معوض- د.زكريا عبد المجيد النوقي- د. أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمة، ط1، ج1، لبنان- بيروت، 1422 هـ، 2001 م، ص 477.

[4] ابن عطية (أبو محمد عبد الحق بن غالب): (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط1، ج1، لبنان، 1413 هـ، 1993 م، ص 473.

[5] الشهاب الخفاجي: (أحمد بن محمد بن عمر): (حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)، المسماة: (عناية القاضي و دراية الراضي)، دار صادر، ج2، بيروت، دت، ص 206.

الصَلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَ المُنْكَرِ) [1]. إن الإيمان الصحيح بشيء هو الذي يدعوا إلى التلازم التام مع مقتضيات ذلك الإيمان، فمن آمن بالتوراة بحق، وجب عليه العمل بمقتضياتها، و الالتزام بأوامرها، و اجتناب نواهيها، و هذا يدعوه أيضا إلى الإيمان بكل ما يؤديها و يؤكدها و يقرر مضمونه، و قد جاء القرآن مصدقا لما في التوراة؛ فلزم الإيمان به، و إتباع هديه [2].

و بالمعيار السابق تأكدت سخرية الخطاب القرآني حينما وجدناه ينعى على الأفراد من القادة و الزعماء صلفهم و طغيانهم و عداوتهم للإسلام، وجدناه يحدد أشخاصهم –تصريحا أو تلميحا– بما يحطم هالتهم الكاذبة، و يرد عليهم طغيانهم للإسلام، فينال منهم بتساميه، دون أن ينزل إلى مستوى البشر في إسفافهم و تبذلهم.

و من أجمل النماذج التي طرحها الخطاب القرآني في هذا السياق سخريته من عدوين هما من ألد أعداء الإسلام، و أكثرهم خطورة عليه؛ و هما: أبو لهب: (عبد العزى بن عبد المطلب) عم النبي –صلى الله عليه و سلم– وامرأته أم جميل: (أروى بنت حرب)، و ذلك في سورة المسد:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5)﴾[3].

و نرى أسلوبا آخر من الأساليب الساخرة التي طرقها النص القرآني في خطاباته، و هو الإتيان بألفاظ الوعد مكان الوعيد، كما في قول الله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً (168) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (169)﴾ [4].

ففي هذا الخطاب استخدم المولى –عز و جل– لفظ (الهداية)– و هو من ألفاظ البشارة و الوعد بالخير –في الدلالة على جهنم، و هذا لا يستقيم في أصل الاستعمال؛ فالكلام على خلاف مقتضى الحال؛ إذ أن الهداية مأخوذة من الهدى؛ و هو الرشاد، و تبيين الحق من الضلال، و الهادي: من أسماء الله تعالى، و هو الذي بصر عباده و عرفهم طريق معرفته حتى أقروا بربوبيته.

---

[1] سورة العنكبوت، الآية 45.

[2] ينظر: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي: (التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج)، دار الفكر المعاصر، ط 2، ج1، دمشق 1418 هـ، ص 228.

[3] سورة المسد، الآيات 01-05.

[4] سورة النساء، الآية 168- 169.

و لما استعمل لفظ الهداية ههنا في سياق إدخال الكافرين؛ دل ذلك على أن هناك علة و نكتة تقتضي التوقف و الانتباه، و من ثم التحقيق في هذه الحال؛ فهؤلاء الكفار و الظلمة يعتقدون بأنهم الأصح منهجا و معتقدا، و الأسلم مسلكا، و بالتالي فإن العاقبة ستكون لهم، على ظلمهم و كفرهم و عنادهم؛ فأراد الله تعالى أن يبين لهم فساد ما اعتقدوه، و شناعة ما سلكوه: من تنكب طريق الهداية و الصلاح التي جاء بها محمد صلى الله عليه و سلم و التجبر على خلق الله في الأرض فعبر عن ذلك بصورة رائعة، و ذلك أن من شأن الأعمال الصالحة أن تهدي أصحابها إلى حسن العاقبة و المآل، و تدلهم على حسن المستقر و المقام، لكن هؤلاء الكفار قد هدتهم أعمالهم إلى عكس ما يرجون و يأملون؛ هدتهم إلى حتفهم و نهايتهم، بل إلى خلودهم في العذاب و السموم، فأي هداية هذه؟ إن مثل هذا لا يسمى هداية، و لكنه ضلال و غواية. لكن الله تعالى لما أراد إهانتهم و تحقيرهم و الزراية منهم، و قطع أطماعهم، و التنبيه على قلة بصيرتهم... جاء لهم بلفظ يحمل في طياته البشارة و الوعد، فلما نفى عنهم الهداية، ثم حصرها في طريق واحد، أشعر أنه لا زال هناك بريق أمل لهؤلاء الكفار –الأمر الذي تقتضيه الهداية– لكن سرعان ما يتلاشى هذا الأمل، فإذا بالهداية تأتي على غير المعهود؛ فهي هذه المرة إلى جهنم و بئس المصير.

و كما يقول صاحب التحرير و التنوير: "و في هذا الاستثناء تأكيد الشيء بما يشبه ضده: لأن الكلام مسوق للإنذار، و الاستثناء فيه رائحة إطماع، ثم إذا سمع المستثنى تبين أنه من قبيل الإنذار. و فيه تهكم له استثنى من الطريق المعمول ليهديهم، و ليس الإقحام بهم في طريق جهنم بهدى لأن الهدى هو إرشاد الضال إلى المكان المحبوب، و لذلك عقبه بقوله: و كان ذلك أي الإقحام بهم في طريق النار على الله يسيرا إذ لا يعجزه شيء، و إذ هم عبيده يصرفهم إلى حيث يشاء" [1].

كما أن في الآية وجها آخر من وجوه التهكم و السخرية، و هو أن هؤلاء العصاة بعد أن كانوا متعاضدين متناصرين في الدنيا، أصبحوا اليوم عاجزين عن ذلك؛ لا يملكون لأنفسهم –فضلا عن غيرهم– حولا و لا قوة. إنهم بحاجة إلى من يعرفهم طريق جهنم، مع أنها لا تخفى على من استحقها و استوجبها.

وقد شغلت هذه الظواهر الاجتماعية تواجدا كبيرا على ساحة الفضاء القرآني كما هي على ساحة الفضاء الواقعي، فتعددت أشكالها من إمارات السيادة و الجاه و التكبر، إلى البخل و اكتناز المال ومنع

[1] الطاهر بن عاشور: (التحرير و التنوير، مرجع سابق، ج6، ص 48.

الخير ونظرا إلى الأهمية الكبرى لظاهرة اكتناز المال وما يحوطها من إشكالية تحتاج إلى توضيح نختارها كعينة مدروسة لندلل عليها في هذا السياق. فمعروف أن اكتناز المال و ادخاره لا يحاربه الإسلام، بل يخص عليه بما ينافي معه الإسراف و التقتير، أو أن يستعبد صاحبه؛ فيعيش من أجل جمعه وتكديسه دون هدف آخر سواه. لكن تحقق هذا يأتي مشروطا بأداء حق الله تعالى الذي هو حق المجتمع، وهو إخراج زكاته. واللافت للنظر أن سخرية الخطاب القرآني من أصحاب هذا الصنف من الناس لا تأتي عن طريق المعاني المجردة، بقدر ما تلجأ فيه لأداء مهمتها عن طريق تجسيد و تصوير المواقف، فتأتي بـ "المعاني الطريفة التي تحمل مفارقة تثير الانتباه" [1]. و من النماذج الرائعة التي جسدت هذه الصورة على النحو السابق قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (35)﴾ [2].

ترتسم في هذا السياق القرآني صورة الذين يكتنزون المال من خلال تصوير عذابهم في الآخرة، و عذاب كل من هم على شاكلتهم ممن يكنزون الذهب و الفضة و لا ينفقونها في سبيل الله، في مشهد من المشاهد التصويرية الرائعة و المروعة أيضا.

فيسوق لنا المشهد القرآني صورة ساخرة منفرة لا تنهى عن الاكتناز بصريح اللفظ المألوف ممن اكتنز المال، و إنما ترتسم أولا من خلال استثناء طائفة من الكانزين الذين ينفقون من هذا المال في سبيل الله، أما الباقون فهم المبلغون بالبشرى من قبل النبي –صلى الله عليه و سلم. و لكن عن أي شيء تزف إليهم البشرة؟! إنه "لما كان المال حبيبا إلى النفس، و يقترن جمعه و اكتنازه بالسرور في نفوس المولعين باكتنازه، فإنهم حين يسمعون أنه ستنزف إليهم بشرى تنبسط نفوسهم، و يتوقعون بشرى حقيقية تدخل سعادة جديدة إلى نفوسهم مع سعادتها بالمال،

ولم يكن استخدام النص القرآني للخطاب الساخر في موضع من مواضعه مجرد فكاهة، أو أسلوب ترويج للنفوس، وإنما جاء ليؤدي وظيفة إبلاغية مهمة، إنه "صورة عقلية تحمل العقل حملا على التفكير والتدبر، وما من صورة أو نموذج من نماذج سخرية القرآن إلا وتجعل فيه هذا الطابع، طابع فتح المناقشة،

---

[1] ينظر: د. عبد الحليم حفني: (أسلوب المحاورة في القرآن الكريم)، مرجع سابق، ص 185.

[2] سورة التوبة، من الآية 34- 35.

واستعمال التفكير، و تحكيم العقول" [1].

[1] المرجع السابق نفسه، ص 137.

الفصل الثاني

جدلية النص والسياق

تمهيد:

بين النصّ والسّياق علاقة وثقى تؤكد تلازمهما الطبيعيّ، متجدّدة بتجدّد زوايا النظر فيها والبحوث التي اهتمت بهذه العلاقة متنوّعة ومختلفة لأن اتساع فهم السيّاق وتنوّعه مشروط بتنوّع وجهات النظر والنّصوص المدروسة، لذلك لم يلبث أن اقترن البحث في النصّ بالبحث في السّياق، فخرج إلى مجالات تتجاوز الأبنية اللغوية وإن حافظت على أهميّتها في بناء التّصوّرات.

المبحث الأول: مفهوم النص

المطلب الأول: تعريف النص

تتعدد المعاني اللغوية لمادة (ن، ص، ص) فهي تدل على الرفع بنوعيه الحسي و المجرد[1]، وتدل كذلك على أقصى الشيء و غايته، ومنه نص الناقة أي استخرج أقصى سيرها[2]، وعلى الاستقصاء أي الإحاطة، وهو متصل بالمعنى السابق، ومنه (نص الرجل نصًا إذا سأله عن شيء حتى يستقصي كل ما عنده) [3]. ومن دلالاتها كذلك الإظهار[4]. واستخدمت لفظة (النص) في علم الحديث بمعنى الاستناد والتوقيف و التعيين[5]. ويبدو أن الدلالة المركزية للكلمة وهي (الظهور و الانكشاف) انتقلت إلى المعنى الاصطلاحي، وظلت تتداول بهذه الدلالة في مجال العلوم الدينية كلها تقريبا؛ فقد استخدم فقهاؤنا وعلماؤنا الأوائل كلمة النص بمعنى الكلام الثابت الواضح الذي لا يحتاج إلى تأويل[6].

وعليه يمثل مصطلح النص إشكالية معقدة و كبيرة في النقد الحديث، وذلك بسبب تداخله مع عدد من المصطلحات الأخرى كالخطاب و الأثر و غيرهما. و قد حاول لسانيان فرنسيان هما "روبير لافون وفرانسواز مادري" (R.Lafont & F.C-Madray) أن يتتبعا هذا المصطلح منذ نشأته

---

(1) لسان العرب، مادة نصص.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

(4) نفسه.

(5) الشريف الجرجاني، التعريفات، مادة (نص).

(6) نفسه، مادة (نص).

واستعمالاته في العصور المختلفة، فتوقفا عند سوسير، و استعرضنا جهود سبتزر (Spitzer) وريفاتير (Riffaterre)، وكريستيفا (J.Kristeva) وبارت (Ronald Barthes) وجاكبسون (Jakobson) خاصة فيما يتعلق بحديثه عن علاقة النص بالتواصل، كما أوضحا تطور مفهوم هذا المصطلح لدى أولئك الدارسين[1]. و هي دراسة تكشف –لا ريب– أبعادا مختلفة لتطور هذا المصطلح وآفاق رؤيته. كما يقدم المعجم الموسوعي للسيميائية مجموعة من التعريفات الخاصة بهذا المصطلح [2] ومنها تعريفات عامة و شاملة، و بعضها الآخر تعريفات خاصة بهذا الناقد أو ذاك، وكل هذه التعريفات في هذا المعجم أو في غيره من المؤلفات تظهر درجة التباين العالية في هذا المجال، مما يعكس توجهات معرفية ونظرية مختلفة.

و إذا ما حاولنا استخلاص المقومات الأساسية لمصطلح النص لدى اللسانيين عبر دراساتهم المختلفة، فإن النص هو"كل خطاب مثبت بواسطة الكتابة"[3] مثلما يعبر عنه بول ريكور (P.Ricoeur). و قد حاول بعض اللسانيين تجلية مفهوم النص من خلال مظهره الكتابي، وذلك حين يأخذ النص شكل متوالية خطية ذات علاقة مرئية على الورق (graphic shape) كما في دراسات شورت و ليتش (M.H.Short &Leech, G.N) [4]. إن تجلي النص في مظهر كتابي يضعنا وجها لوجه أمام السمة اللغوية للنص، باعتبار الكتابة جزءا من النظام اللغوي. و قد أفاض اللساني "جون لوي هودبين" (J.L.Hoodbeen) في شرح هذه السمة و علاقتها بالكتابة في بحوثه المختلفة[5].

و أما المقوم الثاني للنص فهو ظهور المعنى، فيطلق مصطلح (النص) على ما به يظهر المعنى[6]. و لظهور هذا المعنى آليات متعددة تختلف باختلاف الدارسين. و لا ينظر للحجم في تسمية الملفوظ نصا؛

---

[1] سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص 15.

[2] Encyclopedic dictionary of Semiotics, General editor, Thomas sebeok Mouton,1986,Tom "2"P.1080.

[3] صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، ص 297.

[4] سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص 12.

[5] عبد الرحمن أبو علي، عناصر أولية لمقاربة سيميولوجية، مجلة العرب و الفكر العالمي، بيروت، العدد الاول، شتاء عام 1988، 1988،

ص 74.

[6] الأزهر الزناد، نسيج النص، ص 14.

فكل ملفوظ مهما كان حجمه يمكن أن يعد نصا" إذا تركب من سلسلة من الوحدات اللغوية ذات الوظيفة التواصلية الواضحة[1]. و من هنا قد يكون النص جملة أو عدة جمل، أو سلسلة متوالية من الجمل تقصر و تطول بحسب تلبيتها للسياق؛ و من هذا المنطلق نفسه يعرف هاليداي ورقية حسن (النص) بأنه "وحدة لغوية في طور الاستعمال[2]. فهو وحدة دلالية تحكمها وظيفة تواصلية و ليس وحدة نحوية كالجملة مثلا.

و من المقومات الأخرى الانسجام أو الاتساق بين النص و السياقات التي تظهر فيها؛ فالنص يتسق مع سياق ثقافي عام يتصل بالتاريخ و القانون و الدين و الأدب؛ و لذلك تقترح **كريستيفا** دراسة الأشكال النصية ضمن منظومة الثقافة و التاريخ التي يتشكل منها وفيها النص[3]، كما ينسجم مع سياق خاص يمكن أن نطلق عليه (المقام) يشتمل على مجموعة الظروف و الملابسات التي اكتفت كتابة النص. و تقاس درجة التماسك و الترابط فيذلك النص بالنسبة إلى السياق الذي يظهر فيه[4]. و عنصر الانسجام من العناصر الرئيسية التي يشير إليها (فان ديك) (Van DIJK) في دراسته للعلاقة بين النص و السياق[5]. كما يفترض لاينز نوعا من الانسجام أسماه الانسجام الدلالي، و يقصد به أن تكون المكونات الدلالية والعناصر المعجمية في النص مولدة ضمن توافق نحوي معين[6].

ويلح الذين درسوا (نحو النص) على الفعل التواصلي للنص و منهم (**بيوجراند و درسلر**) فالتواصل يربط بين خصائص النص المختلفة و القارئ[7]، بل إن آخرين يتجاوزون ذلك إلى القول إن "النص عملية يخلقها القارئ"[8]. و بذا يصبح القارئ جزءا لا يتجزأ من تعريف النص عند بارت. والباحثون في محاولتهم

---

(1) المرجع السابق نفسه، ص 15.

(2) social Halliday (M.A.K) & Ruqaiya Hasan, Language Context and text aspects of language in

(3) جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، 1997، ص 29.

(4) جون لاينز، اللغة و المعنى و السياق، ص 221.

(5) Van DIJK, T.A.(1977) Text and context, London, P. 16.

(6) جون لاينز، علم الدلالة، ترجمة مجيد عبد الحليم الماشطة، ص 119.

Beaugrand & Dressles, An Introdution to text linguistics, London, 1984, P

(7)Beaugrand & Dressles, An Introdution to text linguistics, London, 1984, P3.

(8)سعيد يقطين، مرجع سابق، ص 17.

إيجاد نظرية تطبيقية لعملية التوصيل، يتجهون إلى منهج تحليل للرسالة اللغوية طبقا للعناصر الدلالية و الجمالية للغتها. و الأساس اللغوي لهذا التحليل عن **جاكبسون** أن كل حدث لغوي يتضمن رسالة و أربعة عناصر مرتبطة بها هي: المرسِل، و المتلقي، و محتوى الرسالة، و الكود أو الشيفرة المستعملة فيها[1].

ونخلص من هذه العناصر إلى أن النص هو كل كلام متصل ذو وحدة جلية تنطوي على بداية ونهاية، ويتسم بالتماسك والترابط، ويتسق مع سياق ثقافي عام أنتج فيه، وينسجم مع سياق خاص أو مقام يتعلق بالعلاقات القائمة بين القارئ والواقع من خلال اللغة، وبين بداية النص وخاتمته مراحل من النمو القائم على التفاعل الداخلي، وهذا التفاعل يؤدي بالنص إلى إحداث وظيفته التي تتمثل في خلق التواصل بين منتج النص ومتلقيه.

المطلب الثاني: النص عند العرب والمحدثين

أ/ عند العرب: إن المفهوم الاصطلاحي لكلمة نص، مفهوم حديث وافد علينا من الحضارة الغربية، "ولكن لابد من القول إن انتقاله إلى حيز الدراسات الأدبيّة، وشيوعه في أكثر النّظريات الفلسفية والأدبية والنّقدية الحديثة، قد وضع المتلقّي العربي في حالة اضطراب يعيشها جرّاء قراءته أو سماعه لهذا المصطلح، وهو يتردد في جميع الدراسات النّقدية الحديثة، وذلك لعدم مقدرته على الرّبط بين المفهوم المعجمي الذي يعرفه، وبين ما تبثّه الحقول المعرفية في المصطلح من مفاهيم جديدة"[2].

ولم يعرف العرب في تاريخهم ممارسة نصية تامة إلاّ من خلال القرآن الكريم، وهي أولى مظاهر هذه الممارسة في تاريخ العرب، إذ لم يحظ نص من النصوص التراثية بعناية الباحثين والدارسين مثلما حظي به القرآن الكريم. وقد أدرك **الباقلاني** هذا الأمر في القرآن الكريم فقال " إذا تأملته تبين بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم، إنه خارج عن العادة وأنه معجز؛ وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميّزٌ حاصل في جميعه"[3]، حيث بقيت دلالة مصطلح نص في التراث العربي محصورة على الكتاب و السنة

---

(1) صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، 1987، ص 383.

(32) حسين خمري : نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007، ص45.

3 الباقلاني :إعجاز القرآن، تح :السيد أحمد صخر، دار المعارف، ص 35 نقلا عن : عبد القادر شرشار :تحليل الخطاب الأدبي الأدبي لقضايا النص، ص15

بالإضافة إلى دلالات أخرى يحددها السياق. وهناك جهود قد بذلت من طرف علمائنا في مفهوم النص أهمّها ما كان عند المحدثين. لقد سارع علماؤنا من المحدثين إلى تبيين منجزات الألسنية العربية حول النص، ومن هؤلاء الدكتور محمد مفتاح في بداية تأليفه النصّي، إذ أنه بعد ذلك حاول اشتقاق نظرية نصية عربية بناء على الموروث العربي .ويتوقف الدكتور محمد مفتاح عند مجموعة من التعريفات المختلفة للنص فيقول إن النص هو:[1]

- **مدونة كلامية**
- **حدث**
- **تواصلي**
- **تفاعلي**
- **مغلق**
- **تداولي**

ومن الدارسين من استخلص خصائص النص بمعناه الحداثي، من التفسيرات المعجمية التراثية العربية، فهذا منذر عياشي يُعرّف النص استنادا إلى قراءته التراثية، فيقول:

" فالنص دائم الإنتاج لأنه مستحدث بشدة، ودائم التخلق لأنه دائما في شأنٍ ظهورا وبيانا ومستمر في السيرورة لأنه متحرك وقابل لكل زمان ومكان، لأن فاعليته متولدة من ذاتيته النصية وهو إذا كان كذلك، فإنّ وضع تعريف له يعتبر تحديدا يلغي السّيرورة فيه، ويعطل في النهاية فاعليته النصية "[2].

وتبرز كثير من التعريفات المتعلقة بالنص خصيصة ترابط وحداته، إذ تستلزم عناصره بعضها البعض لفهم الكل، كما يؤدي إسقاط عنصر من عناصره إلى عدم تحقق الفهم، ومن هنا يتأكّد دور الربط في النص من خلال المعايير السّبعة، التي ذكرها كل من (دي بوجراند) وزميله (دريسلر) لتحقيق ما يطلق عليه بالنّصية.

[1] نور الدين السد :الأسلوبية و تحليل الخطاب، ج 2 ، دار هومة ، الجزائر، ص75

[2] منذر عياش، النص ممارساته وتجلياته، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع 96-97 ، ص . 53 نقلا عن : عبد القادر شرشار، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص ، ص18.

ب/ عند الغرب

إن كلمة نص **Textus** اللاتينية آتية من الفعل نصّ **Textere** ومعناها بالعربية النسيج ولذلك فمعنى النص هو النسيج، ومثل ما يتم النسج من خلال مجموعة من العمليات المفضية إلى تشابك الخيوط وتماسكها مما يكون قطعة من قماش متينة ومتماسكة " فالنص نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض، هذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كل واحد وهو ما نطلق عليه مصطلح النص" [1].

وما يستنتج من هذا التعريف هو " أن النص مرتبط في مفهومه الأول بمفهوم النسيج والحياكة بما يبذله الكاتب فيه من جهد، بضمّ الكلمة إلى الكلمة والجملة إلى الجملة، وكذلك بما يبذله من جهد في تنظيم أجزائه، والربط بينها مما يكون كلاّ منسجما مترابطا " [2].

أمّا **جوليا كريستيفا** فتعريفها للنص يبرز ما فيه من شبكات متعالقة، فالنص عندها[3] " جهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان، بواسطة الرّبط بين كلام تواصلي يهدف إلى الإخبار المباشر وبين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه أو المتزامنة معه، فالنص إذن إنتاجية.

المبحث الثاني: مفهوم السياق

المطلب الأول: تعريف السياق

لقد عنى اللغويون و المفسرون بدراسة السياق لاستنباط الدلالات الحقيقية و المجازية، و طبقوا ذلك على القرآن الكريم و غيره من النصوص. و رفضوا أن يكون لمفردات القرآن دخل في إعجازه، وذهبوا إلى أن إعجازه في نظمه و تربيته[(4)]. كذلك تنبيه المفسرون للظروف التي صاحبت إنتاج النص، و ذكر الظروف التي قيلت من أجلها الخطبة أو القصيدة[(5)]. بل إن المفسرين تنبهوا بقوة إلى ما يطلق عليه مسرح الأحداث بعنصريه المكاني و الزماني، و أقروا أهميته في التفسير.

---

[1] محمد الأخضر الصبيحي :مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، الدار العربية للعلوم، الجزائر، ط1، 2008، ص19.

[2] المرجع نفسه، ص20.

[3] جوليا كريستيفا :علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2 ، 1997، ص21.

[(4)] عبده الراجحي: علم اللغة و علم النقد الأدبي، مجلة فصول، القاهرة، يناير 1981، مج 1، ع 2، ص 120- 121.

[(5)] تمام حسان: اللغة و النقد الأدبي، مجلة فصول، القاهرة، 1983، مج 4، ع 1، ص 127.

كما اهتم البلاغيون المسلمون بالسياق، فالزمخشري يجعل السياق اللغوي أساسا لمنهجه في كتابه (أساس البلاغة) حيث يورد الكلمة في سياقها. كما التفت إليه ابن الأنباري صدد حديثه عن الأضداد محتكما إلى سياق الكلام أو مقامه. كما التفت الجاحظ إلى الظواهر غير اللغوية و أشار إلى ذلك في حديثه عن (الإشارة بالعين، و الرأس، و الحاجب، و المنكب، و بالثوب، و السيف).

وإذا كان العلماء قديما قد أدركوا الوظيفة الهامة للسياق، فإن فكرة السياق و دلالته مطروحة في الفكر الإنساني منذ أفلاطون و أرسطو، فقد تحدث أفلاطون في كتابه (فيدروس) عن مراعاة مقتضى الحال في الخطابة، و كذلك عرض أرسطو في كتابه (فن الشعر) لموضوع مقتضى الحال[1] وقد اهتم البحث اللغوي الحديث بدراسة السياق "فمعنى الكلمة في المعجم متعدد و محتمل، و لكن معنى اللفظ في السياق واحد لا يتعدد بسبب ما في السياق من قرائن مقالية تعين على التحديد، و ارتباط كل سياق بمقام معين"[2].

المطلب الثاني: أنواع السياق

يعتقد فيرث Firth في إطار بحوثه اللسانية بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية؛ أي وضعها في سياقات مختلفة[3]. فالسياق عنده بناء على هذه النظرة ينقسم إلى قسمين:

- السياق الداخلي
- السياق الخارجي [4].

و قد أورد جيوفري فينش تلك الثنائية، و لكن مع أحلاف المسميات، فالسياق قسمان:

1- السياق اللغوي

2- سياق الموقف

وتكمن أهمية سياق الموقف في أنه يفسر أمورا لا يستطيع السياق اللغوي وحده تفسيرها، و يضم

---

[1] محمد غنيمي هلال: المواقف الأدبية، ص 17.

[2] تمام حسان: اللغة العربية معناها و مبناها، ص 316.

[3] أحمد مختار عمر: علم الدلالة، ص 68.

[4] حلمي خليل: الكلمة، ص 168.

إليه مجموع العلاقات القائمة بين المشتركين في الحدث، و وسيلة التواصل، و المكان، و المحيط الثقافي بكل ما يفرضه من أعراف و تقاليد[1].

و يقول **دي سوسير**: "إن الكلمة إذا وقعت في سياق ما لا تكتسب قيمتها إلا بفضل مقابلتها لما هو سابق و لما هو لاحق بها أو لكليهما معا." [2] و قد دفعت تلك المقولة بعض اللغويين إلى دراسة السياق و علاقته بالنص[3]، و السياق و علاقته باللغة و المعنى [4]، في إطار ما يسمى بالنظرية السياقية للمعنى [5].

و شكل مصطلح السياق مع النص مظهرين لنفس العملية، فهناك نص و هناك نص آخر مصاحب له هو السياق context. و تشتمل فكرة "ما يصاحب النص" هذه على أشياء كثيرة لغوية و غير لغوية في البيئة العامة التي يظهر فيها النص[6].

ومن الصعب فهم أية رسالة ما لم تكن تعلم ماذا يحدث الآن، و ما لم تكن على علم بالأداء الصوتي و المرئي المصاحب لها. بل أن مالينوفسكي يرى أنه من الضروري أن نهتم بما هو أكثر من السياق المصاحب للنصوص؛ فمن الضروري ألا نهتم بما يحدث الآن فقط بل نهتم كذلك بالخلفية الثقافية للمشتركين، و نعنى بها كل التاريخ الثقافي الكامن في عقل المشتركين، و الكامن في نوع النشاط الذي يمارسونه (نوع النص genre) [7].

يمكننا هذا الاستقصاء لمفردات السياق من أن ننظر له بشكل موسع؛ فهناك عوامل سياقية تؤدي إلى ظهور النص، و هناك عوامل تصاحبه وقت حدوثه، و أخرى تعقبه. و من ثم فهناك ثلاثة محاور أساسية للسياق، هي:

- السياق السابق.

---

(1) Geoffrey Finch: Lingustic terms and concepts, PP 212- 213.

(2) فرديناند دي سوسير: دروس في الألسنة العامة، ص 186.

(3) Van Dijk: Text and context.

(4) جون لاينز: اللغة و المعنى و السياق.

(5) bJohn Lyons: Semantics V.II, P 607.

(6) Halliday & Hassan: Language, context and text, P 5.

(7) Halliday & Hassan: Language, context and text, P.6.

- السياق المصاحب
- السياق اللاحق.

إن منظور هذه الدراسة لا يقف عند دراسة السياق بقدر ما يسعى إلى إظهار ذلك التأثير المتبادل بينه و بين النص، بما يفسر لنا ذلك النص بشكل موضوعي. و من ثم لزم الكشف عن كل الجوانب السياقية الممكنة سواء كانت سابقة أو لاحقة له أو تحدث أثناء أدائه.

أولا: السياق السابق.

1- سياق الموقف: إن النص خطاب مترابط ترابطا دلالية، و ذلك باعتبار وجود سياق للموقف[1]. و هو في الغويات الحديثة البيئة غير اللغوية التي تستخدم فيها اللغة. و يمكن لنا أن نستخدم مصطلح co-text الذي قدمه **كاتفورد** للإشارة إلى نفس المفهوم[2].

و يعد **مالينوفسكي** أول من استخدم مصطلح سياق الموقف للإشارة إلى الأحداث و المواقف التي ينتج فيها النص، كما يؤكد أن الفهم الحقيقي للكلمات مستمد من الخبرة الفعلية و المعرفة بمظاهر الواقع الذي تنتمي إليه تلك الكلمات. و قد تنبه فيرث لأهمية المعرفة بسياق الموقف حينما أكد أن كل الدراسات اللغوية دراسات للمعنى، و المعنى يمكن تحديده عمليا كوظيفة في سياق.

هذا السياق هو ما يشير إلى الموقف الاتصالي بعناصره: المتكلم/الكاتب، و المستمع/القارئ، والعلاقة بينهما، و زمان و مكان النص و الظروف الاجتماعية و السياسية المرتبطة به. وتتناول كتب اللغة في حديثها عن سياق الموقف محورين مهمين، هما مجال الخطاب، و أدوار الخطاب.

أ- مجال الخطاب

يشير مجال الخطاب إلى نوع النشاط الذي يحدث الآن، و الذي تلعب اللغة من خلاله دورها أو أنه ما يشير إلى تلك العناصر التي تكون أساس عملية الاتصال[3]. و وتتضح هيمنة مجال الخطاب فيما يجلبه من حقل دلالي خاص يحتوي على كلمات هي الاكثر شيوعا معه، و هي ما يطلق عليه الباحثون (register).

---

(1) Reyocaya Hassan: Text and context in functional linguistics, P 225.

(2) G.R.Marten: Ibid: P 3.

(3) Geoffrey Finch: Linguistic terms and concepts, P.223.

وقد استقرت الرسائل الإخوانية –على تعدد كتابها– حول مجموعة معروفة من مجالات الخطاب شكلت أغراض تلك الرسائل. فهناك رسائل الشكر و المدح و التعزية وطلب التوصية و طلب العفو وتجديد العهد و الشكوى من الدهر. هذه الأغراض (المجالات) تكتسب مصداقيتها من الطبيعة الخاصة للمجتمع الأندلسي و ذلك العصر الذي عاش فيه هؤلاء الكتاب.

كان وجود الرسائل في حد ذاته يمثل ذلك الطريق المتبقي للتواصل مع الآخرين، أمام اختفاء كل الطرق الأخرى. فكل يوم يمر على الأندلس هناك سقوط لمدينة و ترشيد و اغتراب و معارك و قتل وسجن. فأصبح الأندلسي لا يرى أملا في غده، فربما أجبر على السفر و الاغتراب أو حمل السلاح. و من ثم فقد كان هناك غرض ملازم لكل رسالة يبعث بها كاتب، و هو أنه يؤكد لصديقه أنه مازال موجودا، وعلى قيد الحياة.

و الرسائل بكل ما حملته من أغراض عبرت عن الحياة التي افتقدها الكتاب في تعاملهم مع أصدقائهم الذين باعدت بينهم الأحداث، فلم يعد ثمة وسيلة للتخاطب سوى هذه الرسائل التي حملت بالكثير من مشاعر الحب و الود، و تخلصت من العديد من قيود الرسميات الديوانية.

و هم في هذا لا ينسون سجل الأزمات الذي يلازمهم، فلا عجب أن نجد من يكتب رسالة لصديق يخبره بفجيعته في الأندلس تحت الحكم الموحدي[1]. و تحس و أنت تقرأ الرسالة بزخم من المشاعر المتزاحمة التي يود أن يلقيها الكاتب عن كاهله سريعا، ففي رسالة واحدة نجد إظهار مشاعر الود، و المدح، والعتاب، وشكوى الدهر، و إظهار القدرات الثقافية، والإحساس بالاغتراب والشعور بالرفض.

ب–أدوار الخطاب

أي طبيعة المشاركين في الخطاب و حالتهم و العلاقات الدائمة و المؤقتة بينهم[2]. وهي أيضا طبيعة العلاقات الاجتماعية المتصلة بالكلام[3]. وتبين لنا دراسة أدوار الخطاب الأبعاد النفسية للمتخاطبين من حيث السيطرة و المودة، و درجة القرب والصداقة. و هذا كله مما ينعكس على اللغة، فهناك لغة تعبر عن التعالي بين الحاكم و المحكوم، و الشيخ و التلميذ، و هناك لغة أخرى تعكس درجة القرب بين الأصدقاء.

---

[1] أنظر الرسالتين: 39– 40.

[2] Halliday&Hassan: Language, context and text, P 45.

[3] Reyocaya Hassan: Text and context in functional linguistics, P 232.

وجود المتلقي أو المرسل إليه أمر لابد منه، فكل رسالة لابد و أن لها متلقيا، و به يصبح النص مؤثرا و ذا قيمة، و يحمل أبعاده الاجتماعية، و تتحقق وظيفته في التواصل.

و تكشف لنا الرسائل الإخوانية –و ما يلازمها من سياق خاص– وجود متلق متخيل. و هو متلق مثالي مطابق لفكرة منتج النص عن نمط الشخص الذي سوف يهتم بقراءة نصه[1]، و بينهما أمور مشتركة كثيرة اجتماعية و ثقافية و نفسية.

و نجاح تحقق المتلقي المتخيل مرده إلى فكرة "تبادل الأدوار" المرتبطة بالرسائل، فكل كاتب قارئ، و كل قارئ كاتب، و من ثم فإن كل كاتب يدرك الاستراتيجيات التي يقوم بها القراء في تعاملهم مع النص المكتوب.

2– السياق الثقافي:

رأي **مالينوفسكي** ضرورة إعطاء اهتمام كذلك إلى تلك الخلفية الثقافية للنص، لأن أي نوع من التفاعل اللغوي لا يمثله فقط مجموع الرؤى أو الأصوات المحيطة بالحدث، و لكن كذلك كل التاريخ الثقافي الذي يقف وراء المشاركين في الخطاب و كذلك الخلفية الإيديولوجية و التأسيسية التي تعطي قيمة للنص و توثق عملية فهمه و تفسيره[2].

لقد وجدت فكرة الثقافة كسياق للغة على نحو مكتمل عند **سابير و وولف**، إن كان **سابير** لم يستخدم حرفيا مصطلح السياق الثقافي، إلا أنه قدم اللغة على أنها تعبير عن الحياة العقلية لمستخدميها؛ و من هنا فقط شرع هو و وولف في تطوير وجهة نظرهما الناشطة حول التفاعل المتبادل بين اللغة و الثقافة، و هو ما يسمى فرضية سابير–وولف".

و اللغة بذلك وظيفة وفقا للملاحظة المتعمقة لأفرادهما و لإنشائهم المتواصل للخبرة التشاركية في المجتمع الفعلي. و هذه الرؤية الوظيفية للغة تقدم مفهوما للسياق الثقافي أكثر رحابة و اتساعا؛ فنحن عندما نتحدث عن السياق الثقافي للنص فإننا نعني سمات الثقافة المتصلة بوقت كتابته[3]، و المسيطرة على كاتبي النصوص، من أعراف أدبية و لغوية.

---

(1) Reyocaya Hassan: Text and context in functional linguistics, P 238.

(2) Halliday& Hassan: Language, context and text, PP 6- 47.

(3) J.R.Marten: Text and context in funcional lingustics, PP 5- 17.

و يساهم وعي القارئ الثقافي بالنص الذي يقرؤه في إنماء قدرته على القراءة. هذا الوعي –في الأساس– عملية تشاركية بين أعضاء الجماعة الواحدة، و يمثل لكل فرد فيها مقدرة خاصة تمكنه من مواجهة بعض الصعوبات حال تعامله مع النصوص و تدفعه إلى السعي إلى ما وراء النص لتحديد مرجعيته السياقية[1].

يؤدي هذا المدخل في تحديد السياق الثقافي إلى معالجة مجموعة من التفاهم ذات الصلة التي تشكل مفهوم الثقافة لدى المشاركين في الخطاب.

أ– طبيعة لغة الخطاب

انطلاقا من الدور البراجماتي الذي تلعبه اللغة في الاتصال، و ما يتوقعه المشاركون أن تفعله لهم في المواقف المختلفة من إقناع أو تفسير أو تعليم أو نهي –فإننا ننظر إلى طبيعة اللغة من منطلقها الأدائي: هل هي رسمية/ غير رسمية؛ ديالوج/ مونولوج؛ مكتوبة/ منطوقة؟[2].

هذا ما يجعلنا نفترض أن تلك الرسائل بوصفها خطابات مكتوبة أو منطوقة في آن واحد: الكاتب يلجأ إلى نص مكتوب لعمل حوار مع صديقه مخترقا حواجز الزمان و المكان. و إن طال زمن هذا الحوار فإن الأمر في النهاية ينعكس أسلوبيا على طبيعة لغة النص التي جمعت في آن واحد خصائص الشفاهية إلى خصائص الكتابية. و يدعم هذا تمثل الكاتب الدائم لمتلقيه حاضرا في ذاكرته، و ما يقوم به القارئ من رد على الرسالة يكمل به حدود النص.

إن الرسالة الإخوانية لا تكتمل إلا بوجود نص الرسالة التي يرد بها عليها، شأنها في ذلك شأن الحوار الشفاهي الذي لا تكتمل حدود النصية فيه إلا بوجود ازدواجية الإرسال و الاستقبال (أو التحدث و السماع) بين كل من المتكلم و المستمع.

يعمق من التواجد الفعلي لثنائية الشفاهي/الكتابي على مستوى بنية النص– وجودها أيضا على المستوى الثقافي العام: فالنصوص التي بين أيدينا تنتمي إلى بيئة شفاهية، وهي في نفس الوقت مكتوبة، فهي إذا واقعة في منطقة بين الشفاهية و الكتابية؛ وتحمل جدلية بين منطق اللغة المسموعة و منطق اللغة المقروءة. ولو نظرنا إلى لغة تلك النصوص سنجدها تحمل سمات مجتمعة للجانبين.

---

(1) Reyocaya Hassan: Ibid, P 231.

(2) Ibid, P 244.

ولا شك أن هناك اختلافات بين اللغة المنطوقة و اللغة المكتوبة سواء على مستوى الموقف الاتصالي أو على مستوى السمات الأسلوبية و اللغوية لكل منهما.

"إن الكلمة في موطنها الشفاهي تمثل جزءا من حاضر وجودي حقيقي يضم أشخاصا حقيقيين في لحظة زمنية بعينها في موقف حقيقي يتضمن دائما ما يتجاوز مجرد الكلمات. أما الكلمة في النص المكتوب فتقف بذاتها، و كاتبها يكون أثناء إنتاجه لها منفردا، و لذلك تتمتع الكتابة بمركزية الأنا[1]. و تمتلك الكلمة المكتوبة بذلك حرية أكبر في التعامل مع قيود السياق.

إن الكاتب لا ينقل لنا الموقف الاتصالي كما هو، بل يخلق حياة جديدة يرى فيها الواقع برؤيته الخاصة. و ربما كان عدم تقيد النص المكتوب بموقف اتصالي بنفس درجة الكلام الشفاهي عاملا من عوامل ديمومته: فالحديث الشفاهي يبدأ في موقف بعينه و مع مرسل و مستقبل محددين و في زمان و مكان محددين، في حين أن النص المكتوب مستقل بذاته نسبيا، مما يعطي النص مركزية الأنا و يعطي لمؤلفه حرية أكبر في التعبير عن رؤيته الذاتية.

و لا شك أن بعض أجزاء النص المكتوب لا تدرك بلاغتها سماعا، و ذلك عن طريق قراءتها بصوت عال. و ما تحويه لغتنا من ظواهر موسيقية سماعية كالسجع و الجناس و غيرها، مما يعطي جرسا تطرب له الآذان و لا يحمل في المقابل أية ظاهرة مرئية تؤثر على رؤية العين للنص، يؤكد أن الكتابة في ثقافتنا تابعة للشفاهية.

ب–نوع الخطاب

يشير مصطلح "النوع" إلى أصناف النصوص الأدبية مثل الرواية و القصة و الرسالة. و هو مصطلح يتسم بالتعقيد نتيجة اختلاف مفهومه باختلاف معارف الأفراد و ثقافتهم. و يتحكم في استقراره ارتباطه بالسياق بعناصره المختلفة و تكرار الاستعمال و الخبرة الواسعة بنصوصه، و ربطها المستمر بالموقف. و نتيجة ارتباطه بكل ما سبق، فهو قابل للتغيير المستمر[2].

ومما يؤدي إلى عدم استقرار النوع أنه يقوم في مجتمعات متسعة الثقافات تحوي العديد من الخبرات؛ مما يتيح الفرصة إلى التغير المستمر فيه بما يعبر عن احتياجات المجتمع. وهذا ما يؤكد على ارتباط "النوع"

---

[1] والتر أونج: الشفاهية، ترجمة حسن البنا عز الدين، ص 192.

[2] Ann M.John: Text, role and context, P 22.

بالغرض أو القصد فالكتاب و القراء يستخدمون النصوص بصورة قصدية لكي يتصلوا ببعضهم البعض. وعلى هذا فإن الأنواع تصنف طبقا للوظائف الخاصة التي ترتبط بها. ومع تعدد المقاصد تتعدد الأنواع تصنف طبقا للوظائف الخاصة التي تربط بها. و مع تعدد المقاصد تتعدد الأنواع و تأخذ صبغة أكثر خصوصية.

ومن ناحية أخرى فثمة درجة صلة قرابة بين الأنواع المختلفة؛ على أساس العمليات الاجتماعية المشتركة بينها، فأي نص ليس في جزيرة منعزلة. و هذه الصلة البراجماتية بين الأنواع تتكامل مع صلة ثقافية متمثلة في التشابه البنيوي و الأسلوبي بينها.

هكذا يتأثر صاحب النص "بالخبرات السابقة لكل النصوص التي تنتمي لنفس النوع، و بالنصوص والخطابات التي هي من خارج النوع. و هكذا فإن تقاليد نوع ما يعاد إنتاجها من خلال استمرار استخدامها عبر أنواع أخرى" [1]. و استيعاب الأنواع على ما هي عليه من سمات بنائية يمثل جزءا من أيديولوجيتنا.

ت- معجم الكاتب

يشير هذا المصطلح إلى هيمنة خواص نوعية معجمية و نحوية داخل النص. و هو نتيجة لارتباط اللغة بالاستخدام. كما يشير في حقل دراسات الاسلوبية و علم اللغة الاجتماعي إلى الجوانب الاجتماعية و الموقفية التي ترتبط بأسلوب اللغة المستخدمة. فأي تغير على مستوى العلاقة بين المخاطِب والمخاطَب يظهر على مستوى اختيار الكلمات في خطابهما[2].

وفي هذا الإطار يميل الكاتب إلى الاختيار من بين البدائل المعجمية أو الأسلوبية ما يناسب الموقف وطبيعة علاقته بالقارئ. "و إذا كانت البدائل يجمعها كلها جانب دلالي مشترك فإن كلا منها يقترن لدى الكاتب و القارئ بمعان افتراضية خاصة أو عرفية في السياق الاتصالي. والكاتب لديه إذا القصد لوفاء منطوقه بهذه الوظيفة بصورة مناسبة، ولأن تكون السمات الأسلوبية الخاصة به تعبيرا واضحا عن مقاصده"[3].

---

[1] Ann M. John: Text, role and context, P 35.

[2] J.R.Marten: Text and context in functional linguistics, P 28.

[3] فان دايك: علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات)، ترجمة سعيد بحيرى، ص ص 162- 165.

لذا تنعكس طبيعة اللغة أيضا على اللغة المستخدمة، وتشكل أيضا –بجانب أدوار المتخاطبين الأبعاد البراجماتية لها: فمما هو واضح أن استخدام اللغة في إطار من الرسميات يختلف عن استخدامها في إطار من الحب والمودة، و ينعكس هذا على البدائل المعجمية و الأسلوبية المختارة. كذلك فإن اللغة الكتابية تسمح للكاتب أن ينمق رسالته و يزينها و يرتبها الترتيب المنطقي الأمثل و يوري ما قد يظهر من أغراض يريد إخفاءها و يظهر ما يريد منها و يتجنب الوقوع في التكرار.

هكذا تعدّ اللغة المكتوبة وسيلة للتواصل بين اثنين يظل ملقى على عاتق المرسل منهما مهمة إيجاد سياق مواز للسياق المصاحب لعملية الكلام، فهو بقدر الإمكان يخلق من لغة نصه و محتوياته المضمونية عناصر السياق التي يدركها القارئ و على أساسها يفهم النص. و بالتالي فإن المحلل يجب أن يكشف عن تلك الطاقة الإبداعية الكامنة في لغة الرسائل و التي تحمل ذلك البعد البراجماتي الخاص الذي يميزها عن اللغة المنطوقة.

ثانيا: السياق المصاحب.

يشتمل هذا المفهوم على أشياء كثيرة لغوية وغير لغوية في البيئة العامة التي يظهر فيها النص[1]. ويؤكد وجود هذا السياق على أنه من الصعب فهم أية رسالة ما لم نكن نعلم ماذا يحدث الآن، و ما لم نكن على علم بالأداء الصوتي و المرئي المصاحب لها و الذي يبين ما يحدث بالفعل[2]. و هذا مما يؤكد على أن الفهم الحقيقي للكلمات مستمد من الخبرة الفعلية و المعرفة بمظاهر الواقع الذي ينتمي إليه.

عناصر السياق المصاحب في الحديث الشفاهي واضحة و بارزة لكل من المتكلم و المستمع وتنحصر في استخدام بعض الوسائل اللغوية مثل النبر والتنغيم ، و بعض الوسائل السيميولوجية مثل إيماءات الوجه و حركات الجسد. فنطق كلمة أو عبارة بتنغيم مختلف في كل مرة ينتقل بها من مجال دلالي إلى مجال آخر. و نبر بعض الكلمات يوحي إلى ارتباطها بفكرة مهمة يريد المتكلم بثها للمستمع. كما يؤكد استخدام إيماءات الجسد و حركاته على اكتمال الأبعاد السيمانطيقية للخطاب و وضوحها للمستمع.

ومع النص المكتوب يصبح أمر رصد هذا السياق صعبا على كل من الكاتب و القارئ. و يؤكد بعض الباحثين أن تصور السياق المصاحب وسيلة يلجأ لها القارئ لفهم النص، حيث يلجأ إلى تعويض

---

(1) Halliday & Hassan: languahe, context and text, P 5.

(2) Ibdi, P 6.

نموذج العالم الفعلي بعالم ممكن (متخيل). و العلاقة بين هذين العالمين ليست علاقة انفصال تام بل هناك تفاعل دينامي بينهما بواسطة تفهم هذا بذاك.

يحاول الكاتب أن يقدم –من ناحية أخرى– تصورا أكثر للقارئ، ليعرض له النص كما تمثله هو أثناء كتابته. و هو في إطار آخر يبحث عن ذلك المعادل الموضوعي لعناصر السياق المصاحب اللغوية والسيميولوجية، بحيث لا يفقد المكتوب أي عنصر يجعله أقل أداء من النص الشفاهي.

ويجد الكاتب ضالته في عناصر دالة، مثل علامات الترقيم، و السجع و القافية، و الصيغ الدعائية و استخدام ضمير المخاطب، و بعض العناصر الحوارية. و كلها عناصر تكشف أكثر من غيرها عن البعد الشفاهي و تساعده على خلق عالم متخيل أكثر قبولا. و يساعده في ذلك معرفة القارئ (باعتباره لا محالة كاتبا أيضا) بتلك الطاقة الكامنة في مثل تلك العناصر اللغوية المكتوبة.

ثالثا: السياق اللاحق.

يدل السياق اللاحق على ما أدى له النص من تغيرات اجتماعية و أيديولوجية. و تعد دراسة هذا السياق أمرا ذا فائدة ما وضعنا في الاعتبار أن الرسالة تنتظر ردا عليها يكمل معها حدودا لنص أكبر، بما يعني أن ذلك السياق جزء من النص. و من ثم فإن السياق اللاحق لنص من نصوص الرسائل هو في الآن سياق سابق لرسالة أخرى تالية لها.

هذا التصور يؤكد أن أي نص يدخل بعد كتابته –بمفاهيمه التي يعرضها كاتبه– حيز السياق على اتساعه. فيشكل بوجوده نصوصا أخرى لاحقة له تمثل امتدادا لمقولاته.

من معالم السياق اللاحق أيضا ما تؤديه الرسائل من (تعميق أواصر الصداقة) و خاصة مع وجود انقطاع طويل لها. و يعد هذا المعلم عاملا مشتركا بين السياق السابق و السياق اللاحق، فكل رسالة يمثل الغرض من كتابتها كنتيجة حتمية.

إن وجود السياق اللاحق للنص دليل على نجاحه؛ و قبول القارئ له؛ كما يعد امتدادا أيديولوجيا واستمرارا لوجود النوع.

المبحث الثالث: العلاقة بين النص والسياق

المطلب الأول: العلاقة بين النص والسياق عند (فان ديك)

يعد فان ديك ممثلا لمنظور لسانيات الخطاب، و قد طور في كتابه (النص و السياق) الذي صدر عام (1977) بعض الآراء التي سبقت صياغتها في مؤلف سابق له هو: (Some Aspecs of texte Grammars) الذي صدر عام (1972)، و قد درس (ديك) الجانب الدلالي في النص إضافة إلى الجانب التداولي، و وضع نظرية تهدف إلى تحديد أنواع الأقوال المقبولة تواضعيا، كما وضع مجموعة من الاقتراحات اللازمة لتطوير التعامل مع اللغة وفق هذه النظرية. و من هذه الاقتراحات:

- أن النحو يجب أن يوسع نظرته إلى البنى اللغوية المختلفة، بحيث تشمل إضافة إلى البنية الداخلية و المعنى المسند إليها مستوى ثالثا هو مستوى الفعل المنجز، الذي سيمكن من إعادة بناء جزء من المقتضيات التي تجعل الأقوال مقبولة تداوليا و مناسبة، بالنظر إلى السياق التواصلي الذي تنجز فيه.
- يدعو (**ديك**) إلى إعادة بناء الأقوال ليس على شكل جمل، و إنما علينا تجاوز الجملة إلى وحدة الخطاب كتجل عملي لوحدة مجردة هي النص لتحقيق غاية تفسير العلاقات النسقية بين النص وسياقه التداولي، و من هنا سعى (**ديك**) إلى إقامة نحو للنص أو الخطاب المترابط، و هذا النحو يأخذ بعين الاعتبار كل الأبعاد البنيوية و السياقية و الثقافية [1].

و أما تحليل الخطاب وفقا لـ (**ديك**) فيعني تحليل عنصر الانسجام، و هذا الانسجام بين النص السياق له مظاهر هي: الترابط، و انسجام مكونات المقطع اللغوي الواحد، ثم المقاطع جميعها عن طريق تطابق الذوات المؤلفة لها، و العلاقات المختلفة، و مراعاة الحالة العادية المفترضة للعالم، كما يعد ترتيب الخطاب و وقائعه من أبرز مظاهر الانسجام عند (**ديك**)، كما أن الخطاب التام لديه هو حصيلة هذا الانسجام، و يميز النقص في الخطاب عن طريق الاستدلال و التضمين. كما أن موضوع الخطاب أو بنيته الكلية مظهر آخر يشي بعنصر الانسجام [2].

---

[1] Van DIJK, Text and context, P. 41.

[2] Ebid, P. 46.

المطلب الثاني: العلاقة بين النص والسياق من منظور تحليل الخطاب

و يمثل هذا المنظور كتاب (تحليل الخطاب) لمؤلفيه (براون و يول) الصادر عام (1983). و يقدمان مجموعة من الافتراضات التي تحكم اشتغال المتلقي بالخطاب بهدف القارئ هو الذي تسند إليه هذه المقومات، و إن كل نص قابل للفهم والتأويل هو نص منسجم والعكس صحيح [1].

و أما مبادئ هذا الانسجام فتؤخذ من السياق وخصائصه ويتشكل السياق لديهما من المتكلم والمستمع، والحضور (مستمعون آخرون يساهم وجودهم في تخصيص الحدث الكلامي)، والزمان والمكان والموضوع(مدار الحدث الكلامي)، وكذالك العلاقات الفيزيائية بين المتفاعلين كالإشارت، والإيماءات وتعبيرات الوجه، والقناة الموصلة (كلام، كتابة، إشارة)، والنظام أي الأسلوب اللغوي المستعمل، و شكل الرسالة (دردشة، جدال، عِظة، خرافة....) و الغرض (المقصد)، و معرفة العالم الممكن. و هي نفسها العناصر التي اقترحها هايمز و ليفيس (Haimes & levis) في دراسات سابقة لهما.

إن الكلمات التي يتشكل منها هذا الخطاب معلومة معجميًا للقارئ، و لكن تجميعها على هذا النحو يوحي بالغرابة و الغموض، و يزول هذا الغموض بمعرفة السياق الذي ظهر فيه؛ فمكان ظهور هذا الخطاب هو أحد جدران مدينة (جلاكسو) في أسكتلندا، و زمنه هو السبعينات التي اشتهرت بظهور خطابات مماثلة على جدران هذه المدينة، و معنى هذا أن المتلقي و هو ساكن مدينة (جلاكسو) له معرفة سابقة فيما يخص نوع الخطاب الذي يعبر عن تفاعل بين عصابات ما، و المعرفة الموسوعية للعالم يمكن أن تخبرك أن الكاتب عضو من أعضاء عصابة الـ (Mad Mental) و أن المخاطبين هم أعضاء في عصابة (The Insects) وأن الخطاب هو تحذير من عصابة إلى عصابة أخرى محذرة إياها من التمادي في خرق قانون العصابة الأخرى [2]. و يقترح (براول و يول) عددا من الخطوات يمكن عبرها تحليل هذا السياق ومنها: مبدأ التأويل المحلي الذي يعلم المستمع أن لا شيء سياقًا أكبر مما يحتاجه للوصول إلى تأويل ما ومبدأ التشابه الذي يعوده على فهم النص بناءً على علاقات التشابه مع خطابات سابقة مماثلة [3]

---

[1] Brown & Youl, Discourse Aunlysis, P.40.

[2] Brown & yowl, Discourse Analysis, P. 49.

[3] Ebid, P.50.

والتغريض الذي يتعلق بتنظيم الخطاب و ترابطه، و ترتب أجزائه مع العنوان [1]. و المعرفة الخلفية التي تعتمد على سحب المعلومات من الذاكرة و ربطها مع الخطاب المواجه عبر سيناريوهات ترتبط بمعرفة المستمع للعناصر المشكلة للمقام، و التي يسهل على القارئ ملؤها بمجرد تنشيط سيناريو مرتبط بهذه الوضعية أو تلك؛ فمثلا لو كان النص متعلقا بالذهاب إلى المطعم فإن سيناريو المطعم الجاهز يتمثل لدى القارئ بما فيه من مقاعد، و طعام، و عاملين... و كل هذا مرتبط بعملية الاستدلال للرسالة اللغوية [2].

و على الرغم من اتساع مجالات نظرية النص و السياق في الدراسات الغربية إلا أنه لا يمكننا الخروج برؤية منهجية كلية تعين في تناول موضوع البحث، و هذه الرؤية تتمثل في جانبين:

الأول؛ و يرصد السياق بنوعيه: الحالي و المقالي، و يصف المعطيات الاجتماعية و الثقافية، و الشخوص (المخاطِب و المخاطَب) و الهدف، و الزمان، و المكان، و طبيعة الموضوع، و طبيعة العلاقات، و الإشارات، و الأثر، و قناة الاتصال.

و الثاني؛ و يرصد التكيف اللغوي للنص مع معطيات السياق السابقة، و الذي يحدث ما يعرف بالاتساق، و يدرس في هذا الجانب آلية حدوث هذا التكيف و مظاهره في المستويات اللغوية المشكلة للنص (المستوى الصوتي، و الصرفي...).

المطلب الثالث: العلاقة بين النص والسياق في ميدان علوم القرآن وأصول الفقه وعلوم التفسير

تنبئ مؤلفات أعلام التفسير، وأصول الفقه، و علوم القرآن عن وعي متقدم بحقيقة انسجام الخطاب القرآني مع واقعه الخارجي، و اتساقه في بنائه الداخلي، و يخبر أن القرآن الكريم رغم تفاوت نزوله يشكل نصا واحدا، و هذا ما يعبر عنه عادة بأنه كالكلمة الواحدة و هنا نعرض لرؤيتهم في تماسك النص القرآني وانسجامه مع السياق.

إن مباحث علوم القرآن كلها يمكن أن تدرس دراسة وافية ضمن نظرية العلاقة بين النص والسياق ولكننا نجد أن بعض الموضوعات الصق بموضوعنا من غيرها. ويمكننا ابتداء تصنيف مباحث علوم القرآن المتصلة اتصالا وثيقا بنظرية العلاقة بين النص والسياق إلى نوعين الموضوعات:

---

[2] Ebid, P.52.

أ- موضوعات تتعلق بظروف التنزيل (السياق المقامي)، و هي: أسباب النزول، و نزول القرآن منجما، و المكي و المدني، و الناسخ و المنسوخ.

ب- موضوعات تتصل بالنص القرآني و علاقاته الداخلية (السياق اللغوي) و هي: موضوع المناسبة بين الآيات و السور، و قضايا لغوية و منطقية تضيء مفهوم الاتساق في النص القرآني. و إليك بيان ذلك:

أ- الموضوعات المتعلقة بظروف التنزيل (السياق المقامي):

1- أسباب النزول:

يمثل القول في أسباب النزول[*] ألصق مباحث علوم القرآن بما نحن فيه من استقراء العلاقة بين النص و السياق؛ فهو دال كاشف عن هذه العلاقة، و بصور متعددة تشمل السياقين: اللغوي و المقامي. و تشير كتب علوم القرآن إلى أن كل آية أو مجموعة من الآيات نزلت عند سبب خاص استوجب إنزالها، و أن الآيات التي نزلت دون علة خارجية قليلة جدا. و قد أدرك علماء القرآن أن السبب أو المناسبة المعينة هي التي تحدد الإطار الواقعي الذي يمكن فهم الآية أو الآيات من خلاله، بل و أدرك علماء القرآن أن قدرة المفسِر على فهم النص لابد أن تسبقها معرفة بالوقائع التي أنتجت هذه النصوص. وهذا واضح من خلال الشروط التي يضعونها للمفسر.

إن معرفة أسباب النزول لم تكن مجرد ولع برصد الحقائق التاريخية التي أحاطت بتشك النص، بل هدفت إلى فهم النص و استخراج دلالته فإن "العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب كما يقولون" [1]. كما إن دراسة الأسباب و الوقائع تؤدي إلى فهم حكمة التشريع، خاصة في آيات الأحكام مما يساعد الفقهاء على نقل الحكم من الواقعة الجزئية أو السبب الخاص، و تعميمه على الوقائع المشابهة، و ذلك بالاستناد إلى دوال في بنية النص ذاته تساعد على نقل الدلالة من الخاص و الجزئي إلى العام والكلي.

و من أبرز مفردات هذا العلم مما له صلة مباشرة بنظرية النص و السياق القاعدة المعروفة لدى علماء القرآن "العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص سبب النزول". و قد ناقش السيوطي في (الإتقان) هذه المسألة، ودافع بشدة عن الرأي القائل بأن "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص سبب النزول" و استشهد على ذلك

---

[*] لأهمية هذا المبحث في فهم القرآن و معانيه أفرده جماعة بالتصنيف منهم: علي بن المدني شيخ البخاري، و الواحدي في كتابه (أسباب النزول)، و مختصر كتاب الواحدي الجعبري، و السيوطي في لباب التقول في أسباب النزول و غيرهم.

[1] السيوطي (ت911 هـ)، الإتقان في علوم القرآن، ط3، دار الكتب العلمية/بيروت/ لبنان/ 1995، 65/1.

بأمثلة عديدة منها الآية الكريمة: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) ﴾ [1]. فإنها نزلت في أبي بكر الصديق. بالإجماع، و مع ذلك فإن صيغة العموم منها تفيد أن هذا الحكم ليس مقصورا عليه. و لذا فإن عموم اللفظ و سياق الآيات فَيْصَلٌ في الحكم الذي تضمنته الآيات" [2]. و للسيوطي عبارة في هذا الموضوع لها اتصال وثيق بما نحن بصدده يقول: "إن صورة السبب قطعية الدخول في العام، و قد تنزل الآيات على الأسباب الخاصة، و توضع مع ما يناسبها من الآيات العامة لنظم القرآن و حسن السياق، فيكون ذلك الخاص قريبا من صورة السبب في كونه قطعي الدخول في العام" [3]. و ضَرَبَ لذلك مثلا بقوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [4]. فإنها إشارة إلى كعب ابن الأشرف و نحوه من علماء اليهود "لما قدموا مكة، و شاهدوا قتلى بدر، حرضوا المشركين على الأخذ بثأرهم، و محاربة النبي –صلى الله عليه و سلم– فسألوهم: من أهدى سبيلا: محمد و أصحابه، أو نحن؟ فقالوا: أنتم. مع علمهم بما في كتابهم من نعت النبي –صلى الله عليه و سلم– المنطبق عليه، و أخذ المواثيق عليهم أن لا يكتموه، و كان ذلك أمانة لازمة لهم، و لم يؤدوها، حيث قالوا للكفار أنتم أهدى سبيلا حسدا للنبي – صلى الله عليه و سلم– بإفادة أنه الموصوف في كتابهم، و ذلك مناسب لقوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ [5]. فهذا عام في كل أمانة، و ذلك خاص بأمانة هي صفة النبي – صلى الله عليه و سلم– بالطريق السابق، و العام تال للخاص في الرسم، متراخ عنه في النزول، و المناسبة تقتضي دخول ما دل عليه الخاص في العام"[6]. و نقل السيوطي عن بعضهم أنه لا يرد تأخر نزول آية الأمانات عن التي قبلها بنحو ست سنين، لأن الزمان يشترط في سبب النزول، لا في المناسبة، لأن المقصود منه وضع آية في موضع يناسبها، و الآيات كانت تتنزل على أسبابها، و يأمر النبي – صلى الله عليه و سلم–، بوضعها في المواضع التي علم من الله أنها مواضعها"[7].

---

[1] سورة الليل، آية (17).

[2] السيوطي، الإتقان، 65/1.

[3] نفسه، 66/1.

[4] سورة النساء، الآية 51.

[5] سورة النساء، الآية 58.

[6] السيوطي، الإتقان، 65/1.

[7] نفسه، 66/1.

إن استيعاب النصوص للوقائع الجديدة لابد أن يستند إلى دوال إما في بنية النص و إما في السياق الاجتماعي لخطابه، أي في أسباب النزول. و قد أدرك عمر بن الخطاب حكمة التشريع الذي يعطي للمؤلفة قلوبهم نصيبا من الزكاة، لا من بنية النص ذاته، بل من السياق العام للنص، فأدرك أن حكمة هذا التأليف تقوية الإسلام الذي كان ضعيفا، و مع قوة الإسلام و سيطرته على الجزيرة العربية، و امتداده إلى ما وراءها لم يعد ثمة حكمة في إعطاء جزء من الزكاة لمن لا يستحقها، و بالفهم نفسه من جانب عمر لحكمة فرض حد السرقة، لم يُقِمْ هذا الحد على العبدين اللذين سرقا من سيدهما الذي كان يجيعهما، و يهدد ابن الخطاب السيد نفسه بقطع يده لو عاد العبدان للسرقة مرة أخرى. و كذلك نرى هذا الفهم في طرائق المفسِرين في التعامل مع النص القرآني.

إن مجموعة النصوص التي نتعامل معها في موضوع "أسباب النزول" تفيد أن حركة تحليل النصوص يجب أن تسير في اتجاهين: الأول من خارج النص إلى داخله، أي من السياق الاجتماعي للنص إلى بنيته الداخلية، و الثاني: من داخل النص إلى خارجه، فنرى السياق الاجتماعي من خلال بنية النص الداخلية و علاقته بالأجزاء الأخرى من النص العام. فيمكن بهذا اكتشاف أسباب النزول من داخل النص، كما يمكن اكتشاف دلالة النص بمعرفة سياقه الخارجي. خاصة إذا تعسر تحديد سبب النزول بسبب تضارب الروايات.

2- نزول القرآن منجما:

الذي عليه معظم علماء الإسلام أن القرآن الكريم أنزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد متتابعا متدرجا مع الوقائع و الأحداث في قرابة ثلاث و عشرين سنة[1].﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾[2]. "و غالب القرآن نزل مفرقا و أقله نزل جمعا"[3]. و يضع مؤلفو كتب كتب علوم القرآن حِكَمًا لنزول القرآن منجما و منها تثبيت فؤاد النبي –صلى الله عليه و سلم- ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (32)﴾ [4]. و حول هذه الآية و هذه الحكمة يقول السيوطي: "لنثبت به قلبك، أي لنقوي به قلبك، فإن الوحي إذا كان

---

[1] مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص 101.

[2] سورة الإسراء، آية 106.

[3] السيوطي، الإتقان، ص 12.

[4] سورة الفرقان، الآيات 32-33.

يتجدد في كل حادثة، كان أقوى بالقلب، و أشد عناية بالمرسل إليه، و يستلزم ذلك كثرة نزول الملك، وتجدد العهد به، و بما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقتصر عنه العبارة"[1]. و في موضع آخر يذكر طَرَفًا آخر من حِكَمِ تنزل القرآن الكريم مفرقا يقول: [و منه ما هو جواب لسؤال، و منه ما هو إنكار على قول قيل، أو فعل فعل[2] ﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾[3].

و لا شك أن هذين النصين يكشفان بجلاء عن تفاعل النص مع سياقه المقامي (الخارجي)؛ فتثبيت الفؤاد المشار إليه في الآية و في نص السيوطي، يشير إلى مراعاة حال المتلقي الأول من حيث صعوبة عملية الاتصال بالوحي عليه –على الأقل في بدايتها– و من حيث إن الثقافة ثقافة شفاهية يستحيل فيها استيعاب نص على هذا الطول، و على ذلك فإن مراعاة حال المتلقي الأول ليست مجرد مراعاة لعوامل شخصية ذاتية بقدر ما هي مراعاة لحالة عامة، يدخل فيها المتلقي الأول جنبا إلى جنب مع المخاطَبين بالنص لتقرأه على الناس على مكث". إن النص هنا يستجيب إطار مراعاة حال المتلقي الأول، إلى مقاربة الإحساس بجدلية العلاقة بين النص و الواقع.

و قد عبر مالك بن نبي عن هذه العلاقة بقوله: "سيهدي الوحي خلال ثلاثة و عشرين عاما سير النبي و أصحابه خطوة خطوة نحو هذا الهدف البعيد و هو يحوطهم في كل لحظة بالعناية الإلهية المناسبة فهو يعزز جهودهم العظيمة، و يدفع أرواحهم و إرادتهم نحو هدف الملحمة الفريد في التاريخ، فيكرم بآية صريحة قضاء شهيد أو استشهاد بطل[4]. ثم تساءل كيف كان القرآن سيؤدي دوره حيال طبيعة الإنسان التي جاء يصوغها في ذلك العصر، لو أنه سبق بنزوله أحداث حنين و أحد، و ماذا كان يكون لو أنه لم يأت لكل ألم بعزائه العاجل، و لو أنه لم ينزل لكل تضحية جزاءها، و لكل هزيمة أملها، و لكل نصر درسه، و لكل عقبة إشارة إلى ما تقتضيه من جهد، و لكل خطر أدبي أو مادي روح التشجيع اللازم و لمواجهته، و هل كان لدرس الإسلام العظيم أن يجد طريقه إلى قلوبهم و ضمائرهم لو لم يكن نزوله تبعا

---

[1] السيوطي، الإتقان، ص 92-93.

[2] نفسه، ص 92.

[3] سورة الفرقان، آية 33.

[4] مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص 174.

لأمثلة الحياة نفسها و الواقع المحيط بهم؟ و يجيب: لو أن القرآن كان قد نزل جملة واحدة لتحول سريعا إلى كلمة مقدسة خامدة، و إلى فكرة ميتة، و إلى مجرد وثيقة دينية لا مصدرا يبعث الحياة في حضارة وليدة فالحركة التاريخية و الاجتماعية و الروحية التي نهض بأعبائها الإسلام لا سر لها إلا في هذا التنجيم[1].

و من ناحية أخرى فإن تنجيم هذا النص ليتناسب مع مقتضيات الأحوال الخارجية و لمدة طويله (23 سنة) عني الترابط الواضح بين النص اللغوي و الواقع الخارجي و يكشف أيضا عن قضية أخرى هي قضية الاتساق الداخلي في النص القرآني، فمسألة التنجيم، و مسألة أسباب النزول، و مسألة الناسخ والمنسوخ كلها قضايا قد توحي بوجود تناقض في العلاقات الداخلية للنص القرآني. و لكنها جميعا تؤكد اتساق النص القرآني، فالقرآن رسالة، و المتلقي الأول هو الرسول (صلى الله عليه و سلم)، و هناك مخاطبون، و قد تنزل القرآن إليهم معالجا مقتضيات حياتهم بخطابات متنوعة في الأسلوب و المضمون، وإن تنوع الخطاب القرآني، و تدرجه في مستويات عدة، بحسب المخاطبين و ظروف الخطاب، هو أبرز دليل على أن هذا الخطاب هو خطاب الحياة. و الذي يكشف عن هذا التفاعل الحار بين النص و المقام الذي يتنزل فيه، و مع ذلك يبقى متسقا منسجما مترابطا، فالتفاعل مع الواقع ينتج نصا متآلفا متناغما. ولن يفوتنا الإشارة إلى أن السبب الرئيسي في بقاء النص القرآني متوحدا كالكلمة الواحدة هو وحدة المخاطِب سبحانه و تعالى، و على الرغم من توحده فهو متنوع يشتمل على خطابات عديدة تختلف باختلاف المقام داخل النسيج القرآني الواحد.

3- المكي و المدني:

ضبط الصحابة و التابعون و علماء القرآن منازل القرآن آية أية ضبطا يحدد الزمان و المكان. و عني العلماء بتحقيق المكي و المدني –على وجه التخصيص– عناية فائقة. و يمكن القول إن ظروف التنزيل كانت واضحة لديهم أشد الوضوح، و من ذلك علمهم بما نزل بمكة، و ما نزل بالمدينة، و ما نزل بمكة و حكمه مدني و ما نزل بالمدينة و حكمه مكي، و ما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، و ما نزل ببيت المقدس، و ما نزل بالطائف، و ما نزل بالحديبية، و ما نزل ليلا، و ما نزل نهارا، و ما

[1] السابق، ص 174.

نزل مشيعا، و ما نزل مفردا، و ما نزل مجملا، و ما نزل صيفا، و ما نزل شتاء، و ما نزل في الحضر (الحضري) و ما نزل في السفر (السفري) و غيرها.

و لعل التفرقة بين المكي و المدني في النص تعد تفرقة بين مرحلتين هامتين ساهمتا في تشكيل النص سواء على مستوى المضمون أم على مستوى التركيب و البناء. و ليس لذلك من دلالة سوى أن النص ثمرة للتفاعل مع الواقع الحي التاريخي، و إذا كان العلم بالمكي و المدني يكشف عن الملامح العامة لهذا التفاعل، فإن علم أسباب النزول الذي سلف الحديث عنه يكاد يزودنا بالمراحل الدقيقة لتشكيل النص في الواقع والثقافة. و لذلك جهد علماء القرآن ليس في تبين دقائق هذا الموضوع فحسب، بل في ذكر فوائده الجمة، في كل زمان و مكان، و يذكرون من هذه الفوائد "الاستعانة في تفسير القرآن، و الاستفادة منها في أسلوب الدعوة، فإن كل مقام مقالا، و مراعاة لمقتضى الحال، فالخطاب يختلف باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم، و أحوال بيئتهم، و.... تتلاءم طرائق الخطاب بما يلاءم نفسية المخاطب"[1]. كما أنه "عماد قوي في تاريخ يستند إليه الباحث في معرفة التدرج في الأحكام و التكاليف"[2].

و يقترح د.حامد نصر أبو زيد أن يكون معيار التصنيف مستندا إلى الواقع من جهة، و إلى النص من جهة أخرى. إلى الواقع لان حركة النص ارتبطت بحركته، و إلى النص من حيث مضمونه و بناؤه؛ ذلك أن حركة النص في الواقع تنطبع آثارها في جانبي النص. و لذا فمعيار التصنيف هو التفرقة بين مرحلتين تاريخيتين تفصل بينهما الهجرة؛ فالمكي ما نزل قبل الهجرة، و المدني ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أم بالمدينة[3]. و دليل صحة هذا المعيار (ارتباط النص بحركة الواقع) أن علماء الإسلام حين كان يلتبس عليهم إيجاد دليل حاسم على مكان نزول الآيات كانوا يلجئون إلى بعض المعايير المضمونية داخل النص ذاته، فذهبوا مثلا إلى أن "كل سورة فيها (يا أيه الناس) و ليس (يا أيها الذين آمنوا) فهي مكية. و هذا المعيار المضموني أيضا له صلة بالواقع الاجتماعي كما نرى فيبرز فيه عنصر مراعاة المخاطَب مرتبطا بالعنصر الدلالي و التعبيري داخل النص، و كل سورة فيها (كلا) فهي مكية، و حكمة ذلك "أن نصف القرآن حسب ترتيب التلاوة و حسب ترتيب النزول أكثره بمكة، و أكثرها جبابرة، فتكررت فيه (كلا) على وجه

---

[1] مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص 59-60.

[2] نفسه، ص 51.

[3] نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ص 96.

التهديد و التعنيف لهم، و الإنكار عليهم بخلاف الصنف الأول"[1]. و يبرز هذا المعيار المضموني أيضا عنصر مراعاة المخاطَب، و التكيف مع الظرف الاجتماعي، و أثر ذلك في أسلوب الخطاب.

و يعلل علماء القرآن خصيصة طول الآيات المدنية إذا قورنت بقصر الآيات المكية بانتقال الدعوة من مرحلة الإنذار إلى مرحلة الرسالة، أي من واقع اجتماعي إلى واقع اجتماعي آخر؛ فالإنذرا يعتمد على التأثير الذي يعتمد بدوره على لغة ذات أسلوب مركز و موقع، و هو أسلوب طاغ في قصار السور بصفة عامة، و كلها سور مكية، و لكن الرسالة من جهة أخرى تخاطب المتلقي و تنقل إليه محتوى أوسع من مجرد التأثير.

و إن معرفة المكي و المدني وسبب النزول مع دراسة النص دراسة داخلية (أسلوب النص ومضمونه..) تضمن تحليلا دقيقا للخطاب و تجعله قابلا للتمايز، و عدم الخلط بين مناسبة النزول و بين سياق آخر يعاد فيه الاستشهاد بالنص مرة أخرى، فيظن الراوي أن النص نزل سابقا على سببه، مثال ذلك ما يرويه السيوطي أن عمر بن الخطاب حين نزل قوله تعالى: "سيهزم الجميع و يولون الدبر"[2].قال: أي جمع؟ فلما كان يوم بدر و انهزمت قريش نظرت إلى رسول الله –صلى الله عليه و سلم– في آثارهم مصلتا بالسيف يقول: "سيهزم الجمع و يولون الدبر"، فكانت ليوم بدر"[3]. و لكن سياق الآية في سورتها من انتقال النص من قصة آل فرعون إلى تهديد أهل مكة. "و لقد جاء آل فرعون النذر، كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر. أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر. أم يقولون نحن جميع منتصر. سيهزم الجمع و يولون الدبر، بل الساعة موعدهم و الساعة أدهى أمر"[4]. وهو انتقال ينكشف من خلال الالتفات المتكرر من الغيبة إلى خطاب المؤمنين إلى خطاب الكفار ثم إلى الغيبة مرة أخرى، في حركة سريعة، و بالإضافة إلى ذلك فإن التوعد بصيغة الاستقبال (السين) ثم الإضراب باستخدام (بل) و الحديث عن الساعة يكشف عن (سياق النص) أو مناسبة النزول[5].

---

[1] السيوطي، الإتقان، ص 67/1.

[2] سورة القمر، الآية 45.

[3] السيوطي، الإتقان، 36/1.

[4] سورة القمر، الآيات 41-44.

[5] نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ص 94.

4- في مسألة الناسخ و المنسوخ:

تعد ظاهرة النسخ التي ذكرها علماء القرآن في مؤلفاتهم من الظواهر الدالة على وجود علاقة قوية بين النص و الواقع، و هي دالة أيضا على تفاعل هذا النص مع سياقه الثقافي و الاجتماعي. و معنى النسخ: الإزالة، و اختلف العلماء حول مفهومه، فشرح بعضهم بأنه إزالة الحكم و إبقاء اللفظ، و يقصد بذلك إزالة حكم آية بحكم آية أخرى متلوة أو بخبر متواتر، و يبقى لفظ المنسوخة متلوا، و يرى آخرون أنه إزالة الحكم و اللفظ و تحل الآية الناسخة لها في الحكم و التلاوة. و المعنى الثالث من معاني النسخ مأخوذ من قول العرب: نسخت الريح الآثار إذا أزالتها فلم يبق منها عوض، و لا حلت الريح محل الآثار بل زالا جميعا، و هذا النوع من النسخ إنما يؤخذ من جهة الأخبار، نحو ما روى أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة طولا، نسخ الله منها ما شاء فأزاله بغير عوض، و ذهب حفظه من القلوب، و هذا الأخير على ضربين:

1. أن يزول اللفظ من الحفظ أو يزول الحكم، على نحو ما ذكرنا من سورة الأحزاب.
2. أن يزول اللفظ، و يبقى الحكم و الحفظ للفظ، و لا يتلى على أنه قرآن ثابت، نحو آية الرجم التي تواترت الأخبار عنها [1].

و قد انقسم العلماء إزاء هذه المسألة إلى أقسام، فكان منهم القائلون بوجود النسخ، و آخرون قالوا بندرته، و فئة ثالثة أنكرت وجود النسخ في القرآن[*] و يهمنا في هذا المبحث إيضاح علاقة هذا الموضوع بنظرية العلاقة بين النص و السياق من خلال النصوص التي تركها أصحاب دراسات علوم القرآن و نشير ابتداءً إلى أن مسألة النسخ تتصل بموضوع معالجة النص للواقع و تفاعله معه من جهة، و كذلك تتصل بمسألة انسجام الخطاب من جهة أخرى.

فنرى أبا محمد مكي بن أبي طالب (المتوفى سنة 437 هـ) يحاول جاهدا الخروج من مسألة شائكة، و هي أن حدوث النسخ يناقض أن القرآن محفوظ حفظا أزليا في اللوح المحفوظ. و بعد أن يقرر أن هذا التعديل و التبديل و النسخ إنما هو مكتوب في علم الله, و أن الله يحدد أوقات التعديل و كيفيته. في علمه سبحانه، ثم يخرج بعد هذا إلى توضيح وظيفة النسخ، و هي في رأينا توضيح علاقة النص بالسياق

[1] أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، الإيضاح لناسخ القرآن و منسوخه، ص 49-53.

[*] يمكن للمهتم أن يطلع على آراء هذه الفئات في كتب التفسير و الأصول و كتب علوم القرآن.

الخارجي، و بالذات علاقة النص بالمخاطَبين يقول:"...و ذلك منه تعالى لما فيه من الصلاح لعباده، فهو يأمرهم بأمر في وقت لما فيه من صلاحهم في ذلك الوقت، و قد علم أنه يزيلهم عن ذلك في وقت آخر لما علم فيه من صلاحهم في ذلك الوقت الثاني (...) فأتى كل رسول قومه بشرع شرعه الله مخالف لشرع من كان قبله من الرسل "لكل جعلنا منكم شرعة و منهاجا". و ذاك منه تعبد و اختيار و ابتلاء للطائع والعاصي، و كلام الله واحد لا اختلاف فيه، و إنما الاختلاف في المأمور به في وقتين متقدمين في علم الله قبل علم كل مخلوق... و لأجل ما أراد الله من النسخ للرفق بعباده، و الصلاح لهم أنزل القرآن شيئا بعد شيء، و لم ينزله جملة واحدة لأنه لو نزل جملة واحدة لم يجز أن يكون فيه ناسخ و لا منسوخ، إذ غير جائز، أن يقول في وقت واحد افعلوا كذا و لا تفعلوا كذا كذلك الشيء بعينه"[1].

إن هذا النص يعالج قضية اتساق النص مع المقام (السياق المقامي) فليس معقولا أن يتنزل الأمر و ضده في آن واحد فكيف يستجيب المخاطَبون في هذه الحالة؟ ثم إن النص كان يتشكل متطور الواقع و تفاعل المخاطَبين من جانب آخر، و مع هذا التنزل وفق حاجات البشر و تدريج التشريع على أولئك العباد، يبقى النص منسجما متسقا و لاحظ قوله (وكلام الله واحد لا اختلاف فيه) و يبقى الاختلاف في دائرة تفاعل المخاطَبين مع النص الواحد المتسق المنسجم. ثم إن النسخ مظهر لاتصال النص مع الوقائع، و معالجتها معالجة مباشرة، و لابد أن تظهر آثار هذا الاتصال داخل النص القرآني، فأي معنى أن ينزل النص حول حادثه لم تقع بعد؟ يقول مكي بن أبي طالب حول هذه القضية "...مع أنه كان إنزاله القرآن غير جملة أخف في التعبد، فلو نزل العرض كله جملة واحدة لصعب العمل به، و لسبق الحوادث التي من أجلها نزل كثير من القرآن، فغير جائز أن ينزل قرآن في حادثة يخبر عنها بالحدوث و يحكم فيها و هي لم تقع، فافهم ذلك فهو الأصل الذي يبني عليه النسخ و المنسوخ"[2].

و يعالج (مكي بن أبي طالب القيسي) في باب (بيان شروط الناسخ و المنسوخ) علاقة الناسخ و المنسوخ بالشرائع السابقة، و يرى أنها يجب أن لا توضع في الناسخ و المنسوخ يقول: "وقد أدخل أكثر المؤلفين في الناسخ و المنسوخ آيات كثيرة قالوا: نسخت ما كانوا عليه من شراعهم، و كان حق هذا ألا يضاف إلى الناسخ و المنسوخ، لأنا لو اتبعنا هذا النوع لذكرنا القرآن كله في الناسخ و المنسوخ "و هذا

[1] مكي بن أبي طالب القيسي، الإيضاح، ص 55-56.
[2] ابن الجوزي، نواسخ القرآن، ص 14-15.

خروج عما نقصد إليه من هذا العلم"[1]. و يستفاد من ذلك أن النص القرآني نص واحد متصل، ارتبطت آية بأمة جديدة، و بظروف تنزيل مختلفة عن الشرائع السابقة، و عالجت سياقا ثقافيا و اجتماعيا مختلفا و لذلك لا يجوز أن ندرس الناسخ و المنسوخ في أطر زمانية سابقة لنزول القرآن، و ليس معنى هذا أن قراءة هذا النص موقوفة على ظروف تنزيله فقط بل هو نص لغوي يمتلك دوال متعددة، تمكن القارئ من قراءته في إطار النظرة الشاملة (للعالم). و لكن ينبغي علينا قراءته في ضوء علاقة النص بالمخاطبين (المكلفين) وفقا لظروف السياقات المختلفة المحيطة بهذا النص.

و قد ناقش نصر حامد أبو زيد مسألة النسخ في كتابه (مفهوم النص) و ينطلق من معنى النسخ و يحدده بأنه إبدال نص بنص مع بقاء النصين، و على ذلك يصعب تقبل كثير من النصوص و الأنواع التي يوردها العلماء داخل قضية الناسخ و المنسوخ، ثم بعد ذلك يعرج على وظيفة النسخ و هي التدرج في التشريع خطوة خطوة، فالقرآن وحي انطلق من حدود الواقع، و لابد أن يراعي في نصوصه هذا الواقع، وقد قارب لعلماء القدماء هذا الفهم و عبروا عنه بلغة عصرهم. ويرى أنه لا يجوز إغفال البعد الآخر للنص وهو الواقع و المتلقون، ذلك أن الأحكام الشرعية أحكام خاصة بالبشر في حركتهم داخل المجتمع، و يرى أن كثيرا من علماء القرآن قد غالوا في النماذج التي عدوها من الناسخ و المنسوخ، وخلطوا في ذلك بين أدوات التخصيص اللغوي داخل الآية الواحدة، و بين تغيير الحكم لتغير الظروف و الملابسات. ثم يتناول عددا من الأمثلة يعدها بعض علماء القرآن من المنسوخ، و يوضح من خلال سياقها أنها آيات محكمة، وأن المقصود بها خلاف ما فهمه أولئك.

و يعالج أبو زيد مسألة أنماط النسخ، و منها نسخ نصوص من القرآن بنصوص من السنة، و يذكر خلاف العلماء حول هذه المسألة، و يرى أن موقف الشافعي[*] هو أقرب المواقف إلى سياق النص من حيث إصراره على التماثل في مستوى النصوص فيما يتصل بنسخ الأحكام، و يعد الناسخ و المنسوخ في رأيه من المفردات الهامة التي تحدد علاقة النص بسياق الواقع و الثقافة[2].

---

[1] مكي بن أبي طالب، الإيضاح، ص 59/1.

[*] يقول الشافعي: "حيث وقع نسخ القرآن عاضد لها، "و حيث وقع نسخ السنة بالقرآن فمعه سنة عاضدة ليتبين توافق القرآن والسنة"، الرسالة، الشافعي، ص 141.

[2] نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص/دراسة في علوم القرآن، ص 122-124.

و أما مفاهيم التحليل التي يستند إليها. د. مفتاح فهي أولا المقصدية، و هي المعتقدات و المقاصد و الاهداف التي تحكم فعل الكلام الصادر من متكلم إلى مخاطب في مقتضيات أحوال خاصة، و بهذا يدخل من خلال هذا المفهوم ثلاثة عناصر أساسية هي: المخاطِب، و المخاطَب و ظروف التنزيل. أو ما عبر عنه الشاطبي بالمقاصد و مقتضيات الأحوال. فالمخاطِب هو الرسول الذي كان يخاطب الناس بلسان عربي مبين، و ينبني على هذا الأصل نتائج منها تفضيل النص الذي لا يحتمل التأويل على غيره.

الفصل الثالث

العلاقة بين النص والسياق في قصص أولي العزم من الرسل عليهم السلام

تمهيد:

اصطفى الله تعالى من البشر أنبياء ورسلًا، أرسلهم برسالة التّوحيد إلى أقوامهم، وقد كان هؤلاء الرّسل والأنبياء مثالًا في البذل والصبر والتّضحية، حتّى بذل كثير منهم دماءه رخيصةً في سبيل الثّبات على دعوة الله وقد تفاضل الرّسل والأنبياء فيما بينهم بلا شكّ كما يتفاضل سائر البشر فيما بينهم، بل كما يتفاضل الأنبياء فيما بينهم، وقد خاطب الله تعالى نبيّه الكريم في إحدى آيات القرآن الكريم وحثّه على الصّبر على أذى قومه كما صبر أولوا العزم من الرّسل. وفيما يلي سنعرّج على تعريف من هم أولو العزم من الرسل ونوضح شيئاً من العلاقة بين النص والسياق في بعض السور القرآنية المتضمنة قصص كل من نوح عليه السلام، إبراهيم عليه السلام، وموسى عليه السلام.

وأصل كلمة العزم لغةً إلى القصد وعقد القلب على إمضاء الأمر وحصول الهدف والغاية لذلك يقال للرّجل صاحب الهمّة والنّشاط في سبيل تحقيقة هدفه صاحب العزيمة، وقد اعتبر كثيرٌ من العلماء أنبياء الله ورسله كلّهم أصحاب عزيمة وهمّه في سبيل الدّعوة والتّبليغ، ولكن هناك عددٌ من هؤلاء الرّسل قد اجتباهم الله تعالى وميّزهم، وإنّ حقيقة التّفضيل هذه قد ذكرها الله تعالى في كتابه حين قال جلّ جلاله ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾، لذلك كان هناك خمسةٌ من الرّسل اعتبرهم العلماء من أفضل الأنبياء والمرسلين، وما تبوؤوا تلك الدّرجة وما استأهلوا تلك الصّفة إلا بسبب ما قدّموه وما بذلوه وما تحمّلوه من أقوامهم، وقد ذكرهم العلماء بالتّفصيل وهم خاتم النّبيين سيّدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام وأنبياء الله نوح وموسى وإبراهيم وعيسى عليه أفضل الصّلاة والتّسليم.

وسمي هؤلاء الرسل بأولي العزم لأنهم أصحاب صبر وثبات وعزيمة في الدعوة إلى الله، وتحملوا الكثير من أذى قومهم وهم يبلغونهم رسالة الله، قال ابن عبَّاس : هم ذوو الحزم والصبر، قال عز وجل: ﴿اصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف 35) وقد ذكرتهم الآية الكريمة ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى 13) وفي قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ (الأحزاب 7)، إنَّ هؤلاء الخمسة هم الذين يستغيث الناس

بهم يوم القيامة من شدة الحساب وهول الموقف، وطول المقَامْ في طلب تعجيل المحاسبة والقضاء بين الخلق _أعاننا الله جل جلاله على شدائد ذلك اليوم_ ففي (صحيح مسلم) عن أبي هريرة رضي الله عنه حديث الشفاعة المعروف، والذي ورد فيه .... يأتون آدَم ثم قال يأتون نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد. أما آدَم عليه السلام خَرَجَ لأنه ليس برسول فبقي الخمسة لأنهم مرسلون، ومعنى قوله عز وجل﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَم مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ بمعنى الوفاء بالعهد.

ورأي آخر حصْر بعض أهل العلم أولي العزم من الرسل في الخمسة المذكورين في آيتي الأحزاب والشورى، وليس هناك دليل يدل على صحة ما ذهبوا إليه .فلا شك أن الأنبياء الخمسة – الذين هم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا محمد صلى الله عليهم أجمعين.

1- نوح عليه السلام

بعث الله نوحاً بعد آدَم عليهما السلام لما عُبِدَت الأصنام والطواغيت، فكان أول رسول من أولي العزم هو نوح عليه السلام، وكان بينه وبين آدَم عشرة قرون، ففي الحديث قول رسول الله (أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله أنبي كان آدَم ؟ قال: نعم. قال: كم بينه وبين نوح ؟ قال: عشرة قرون. قال: كم بين نوح وإبراهيم؟ قال: عشرة قرون. قال: يا رسول الله كم كانت الرسل؟ قال: ثلاث مائة وخمسة عشر).

هو نوح عليه السلام وقد لُقِّب بشيخ الأنبياء، نبي رسول وهو أول رسول من أولي العزم الخمسة. وكان قبل بعثته على الفطرة مؤمناً بالله سبحانه وتعالى، وكان يشكر الله كثيراً ولهذا أخبر الله عز وجل بأنه كان عبداً شكوراً وكان تقياً صادقاً وورد ذكره في القرآن الكريم في أكثر من موضع، وتوجد سورة في القرآن الكريم باسمه (سورة نوح) وردت فيها قصته كاملة مع قومه. قال عز وجل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) ﴾. لبث في دعوته ألف سنة إلا خمسين عاما لا يكل ولا يمل رغم استمرار عصيان قومه له ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ أي تسعمائة وخمسون عاماً قضاها في دعوة قومه.

ذكر نوح عليه السلام في القرآن 43 مرة، في 28 سورة، والجدول التالي يبين السور والآيات التي ورد اسمه فيها:[1]

اسم السورة	رقمها	أرقام الآيات	اسم السورة	رقمها	أرقام الآيات
آل عمران	3	33	الشعراء	26	116-106-105
النساء	4	163	العنكبوت	29	14
الأنعام	6	84	الأحزاب	33	7
الأعراف	7	69-59	الصافات	37	79-75
الشورى	9	70	ص	38	12
يونس	10	71	غافر	40	31-5
هود	11	89-48-46-45-42-36-32-25	الشورى	42	13
إبراهيم	14	9	ق	50	12
الإسراء	17	17-3	الذاريات	51	46
مريم	19	58	النجم	53	52
الأنبياء	21	76	القمر	54	9
الحج	22	42	الحديد	57	26
المؤمنون	23	23	التحريم	66	10
الفرقان	25	37	نوح	71	26-21-1

- **إشراقات في قوله تعالى: ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾**

في صدر هذه السورة يقول الله تعالى :﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ونوح هو أول الرسل، هو أولهم، لكن كان قبله آدم عليه الصلاة والسلام، و آدم كان نبياً كما في صحيح البخاري ، وفي قصة الشفاعة أيضاً قالوا له: أنت أول نبي .كان نبياً مكلماً معلماً، وعلم أهله وذريته وأولاده الإيمان والتوحيد، وظل بعد آدم عشرة قرون كلهم على الهدى وعلى الإيمان، ثم حصل بعد ذلك التغيير، وكان أصل هذا التغيير هو أنه لما مات الأولون الأكابر الرموز القادة أهل الديانة والعبادة والتقوى والإيمان؛ قال الشيطان لمن بعدهم: لو نصبتم لهم نصباً حتى تستعينوا بهم وتتذكروهم .فنصبوا لهم في محافلهم نصباً -يعني: تماثيل كالأصنام- فلم تعبد، ثم اندرس العلم فعبدت، وهذا جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه، فبعث الله

[1]- عمر أحمد عمر، أولوا العزم من لرسل ، دار حسان للطباعة ولنشر ، م1، 1988، ص15.

تعالى نوحاً عليه الصلاة والسلام مجدداً لدعوة التوحيد؛ ولهذا يبدأ السياق بقوله سبحانه :﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾

فهذه السورة التي بين أيدينا هي عبارة عن جرد حساب، ليس ليوم وليلة أو شهر أو سنة، ولا خمسين أو ستين سنة كما هي أعمارنا، وإنما هي تلخيص وإيجاز لألف سنة إلا خمسين عاماً، لتسعمائة وخمسين سنة من المعاناة والدعوة والصبر والترويع الذي عمله نوح عليه الصلاة والسلام . .

- **دلالة قوله تعالى ﴿إلى قومه﴾**

فالله سبحانه وتعالى يقول:﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ وسماهم قومه؛ لأنهم أبناؤه وإخوانه وأحفاده وقرابته وبنو عمه وجماعته.

وإلا فإن الظاهر –والله أعلم– أن البشرية يوم أرسل إليهم نوح لم يكونوا منتشرين في الأرض كلها، وإنما كانوا قلة، كانوا لا يزالون قليلاً، حتى إن من أهل العلم من قالوا: إنهم كانوا يعدون بالمئات، وقد يصدق هذا أنه في قول الله سبحانه وتعالى في قصة نوح عليه الصلاة والسلام :﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّاقَلِيلٌ﴾ قيل: إن الذين آمنوا معه كانوا ثمانية أو كانوا اثني عشر، وقيل: كانوا سبعين.

فهذا يدل –والله أعلم– على أن المرسل إليهم أيضاً هم في الجملة كانوا قليلاً، وأن البشرية لم تتسع اتساعها، ومن حكمة الله أنه لما كان البشر قليلاً كان الله يمد في أعمارهم، تعويضاً عن هذا النقص الموجود في العدد، كانت أعمارهم تطول؛ لاقتضاء حكمة الله أن يبقوا وأن يمتدوا وأن ينتشروا، كما قال :﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يعني: نشركم . .

- **إرسال نوح إلى قومه دون بقية الخلق والحكمة من الرسالة**

فلذلك قال :﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ وقد يكون المقصود: إلى الناس، إلى البشر؛ لأنه لم يكن ثمة يومئذ إلا قومه، وبناءً عليه يكون الطوفان الذي أرسله الله سبحانه وتعالى اجتاح هؤلاء الأقوام ولم ينجوا، يعني: كأن الطوفان يكون عمّ الأرض كلها، عمّ وطبق الأرض كلها ولم ينج إلا من كانوا مع نوح في السفينة، وقد يؤيد ويعزز هذا المعنى حديث الشفاعة ومجيئهم إلى نوح عليه السلام، وقولهم: أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض .

- **بيان الاحتمالات فيمن أرسل إليهم نوح عليه السلام**

ويحتمل أن يكون المقصود إرسال نوح إلى الخلق كلهم، وأن الطوفان عمّ الأرض كلها ولم ينج إلا من كان مع نوح في السفينة .ويحتمل أن يكون نوح عليه الصلاة والسلام أرسل لقومه، والطوفان عم هذه المنطقة التي كان فيها قومه الذين عصوه وكذبوه، ولا يمنع هذا أو يعارضه أن يكون في مواضع أخرى من الأرض أمم وأقوام لم يرسل إليهم نوح ، وقد يعتضد هذا المعنى بقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه) :إن النبي كان يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت –يعني: محمد صلى الله عليه وسلم– إلى الناس عامة أو كافة، وقد يتعزز هذا المعنى أيضاً بقوله سبحانه :﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾

- **خلاصة رسالة نوح عليه السلام**

وخلاصة الرسالة ذكرها الله تعالى في صدر الآية عنواناً للقصة كلها :﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني: أنذرهم العذاب الأليم، وقد يجوز أن يكون العذاب الأليم هنا هو الطوفان الذي اجتاحهم بعد ذلك، أو يكون المقصود العذاب الأليم في الآخرة، وقد يكون قصد العذاب الأليم في الآخرة أجود وأولى؛ لأن الرسل جاءوا كلهم جميعاً يذكرون بالآخرة، ويحذرون من عقاب الله تعالى لأهل الكفر في الدار الآخرة، وإن كان عذاب الدنيا قد يحذر به وينذر كما في مواضع، فهذا ما بعث الله تعالى به نوحاً عليه الصلاة والسلام.

- **إشراقات في قوله تعالى: ﴿قال يا قوم إني لكم نذير مبين﴾**

﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

﴿قَالَ﴾ يعني: مباشرة، إذاً :نوح عليه الصلاة والسلام قام بالدعوة وقام بالنذارة وتصدى لها، حتى إن الله سبحانه وتعالى لم يقل :فقال بالفاء، الفاء فيها تعقيب، ولكن قال (قَالَ) مما يدل على أن نوحاً عليه الصلاة والسلام قام بهذه الدعوة، وقال هذه الكلمة مباشرة بمجرد ما أوحى الله تبارك وتعالى إليه من غير تلبث ولا تريث ولا تأخر، فقام إلى قومه وخاطبهم وقال: ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾

- **دلالات في الخطاب بقوله ﴿يا قوم﴾**

فخاطبهم بقوله: ﴿ يَا قَوْمِ﴾ أولاً: النداء بحرف (يا)، وهذا فيه توجيه ولفت الأنظار، ثم قال :﴿يَا قَوْمِ﴾ فهو خطابه موجه لهؤلاء القوم، بل قَالَ ﴿يَا قَوْمِ﴾ والكسرة هنا (يَا قَوْمِ) دليل على ياء المتكلم، كأنه يقول: يا قومي! يا جماعتي! يا أهلي! وهذا فيه نوع من التذكير بالرابطة التي بينه وبينهم أنه واحد منهم؛ ولذلك كان من حكمة الله سبحانه وتعالى أنه لا يبعث نبياً إلا من قومه، فنوح و لوط و هود و شعيب وغيرهم و إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم، كان الرسول يبعث إلى قومه؛ لأنه لو كان الرسول أجنبياً أو غريباً ربما رفضوه ونبذوه وتركوه بسبب غرابته وبعده؛ ومن هنا الله سبحانه وتعالى لم يبعث ملائكة وإنما بعث بشراً ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، يعني منهم؛ لأن هذا الرسول كونه منهم مدعاة إلى أن يرعوا هم القرابة والعلاقة بينه وبينهم، هذا أولاً.

وثانياً: لأنه لما يكون منهم يتقن لغتهم ولسانهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾، ولما يكون منهم أيضاً فهو يعرف مداخلهم وعاداتهم وطرائقهم وأعرافهم، وما يمكن أن يؤثر في الدعوة قبولاً أو رفضاً، وهذا دليل على أن الداعية ينبغي أن يتحرى كل الأسباب والوسائل التي تكون مدعاة إلى قبول دعوته، الداعية يقول: أنا مرسل من عند الله وعندي بينة؛ ولهذا آمن الناس أم كفروا هذا لا يعنيني أبداً .هو يعنيه كما هو واضح في هذا السياق، فهو يقوم : ﴿يَا قَوْمِ﴾

- **معنى قوله تعالى (إني لكم نذير مبين) ودلالاته البلاغية**

ثم يقول: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، هذا توكيد، و(إن) من أدوات التوكيد، ولما يقول : ﴿نَذِيرٌ﴾يعني: منذر النذير هو المنذر، كما يقال: فلان سميع، أي: مسمع للناس يسمع الناس، وليس (سميع) بمعنى أنه يسمع لا تأتي (سميع) بمعنى أنه يسمع، وتأتي (سميع) بأنه جهير الصوت يسمع الناس، كما قال عمرو بن معدي كرب : أمن ريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع يعني: الداعي المصوت الذي يصيح فيسمع الناس، فهنا قال: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني: منذر مبين، بين النذارة واضح، حجته قوية وبيانه قوي وبلاغته قوية، ومع ذلك قال : ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ هذا تأكيد آخر خامس أو سادس على أن دعوته لهم وهو نذير لهم، وما قال: إني نذير لكم، قال : ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ للتأكيد على أنه أنتم المقصودون والمصلحة تعود لكم والخير إليكم أيضاً، فقال : ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ فأكد على هذا المعنى وقدّمه قبل أن يبين ما هي

الدعوة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لما قال : (وا صباحاه !وا صباحاه! فاجتمعت إليه قريش قال :إني لكم نذير، إني أنا النذير العريان).

والنذير العريان هو: الذي كان ينذر الناس، حتى ورد أن هذا النذير أحياناً من شدة إنذاره وحرصه وحدبه كان أحياناً يخلع ثوبه ويلوح به للناس إذا كانوا بعيدين، يعني: مثل الذي يقول: جاءكم العدو جاءكم العدو، فهذا عند العرب مثل يضرب، يقال: النذير العريان، يعني: الذي يضطر إلى أن يخلع ثوبه ويلوح به للناس يقول: اهربوا انجوا، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (إني أنا النذير العريان)، و نوح هنا عليه الصلاة والسلام يقول : ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، فبعد هذا التأكيد وإثارة عواطفهم أنه منهم وهم قومه وجماعته وأهل بلده وقبيلته الذين يعرفونه ولبث فيهم عمراً من قبله، كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾

- **إشراقات في قوله تعالى: ﴿أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾**

أما حقيقة النذارة والدعوة ومضمونها فهو ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ ذكر ثلاثة أشياء : ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني: وحدوه، لا تعبدوا إلا إياه .

فهذا يدل على أنهم كانوا مشركين، وهم فعلاً كانوا كذلك، فقد عبدوا غير الله سبحانه وتعالى وتركوا عبادة ربهم، فهو يدعوهم إلى التوحيد، هذا معنى قوله : ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾

- **الترغيب في الاستغفار بحصول النفع الدنيوي**

قال نوح عليه السلام : ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ فبين لهم أنه ربهم وأنه غفار، وأيضاً أغراهم بأمور دنيوية، مثلما قال لهم عن الآخرة والجماعة كانوا أهل زرع وحرث وسعة في أموالهم وأولادهم كما هو واضح في السياق، وطول في أعمارهم، وهذا معناه أنهم أصحاء أقوياء الأبدان، آدم عليه الصلاة والسلام كان طوله في السماء ستين ذراعاً، فهؤلاء يمكن أنهم نقصوا، لكن أيضاً ما يزالون طوالاً عراضاً أقوياء أصحاء. .

فهو يقول لهم : ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ المطر والغيث، هذا معنى (السماء) و(مدراراً)، يعني: مستمراً ومتتابعاً غير متوقف؛ ولهذا أخذ أهل العلم من ذلك أن الاستغفار سبب في نزول المطر، وقد ورد أن عمر رضي الله عنه استسقى بالناس، فصعد المنبر واستغفر الله تعالى ثم نزل، قالوا له: نسيت يا أمير

المؤمنين ما استسقيت لنا، ما طلبت السقيا؟ قال : (والله لقد استسقيت بمجاديح السماء) المجاديح نوء يعرفه العرب وقت الغيث.

فهنا نوح عليه السلام وعدهم بالدنيا ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾، هذا من التنويع، أنك ترغبهم في الآخرة وترغبهم في الدنيا أيضاً، إذاً: ما هناك مانع أنك تقول للإنسان مثلاً: إنه –والله– الاستقامة على الخير وترك الزنا تكون سبباً في صحة بدنك، وتنجيك من الأمراض: الهربس والإيدز والزهري والسيلان وغيرها، وأن يترك الإنسان المعصية طلباً لمرضاة الله وخوفاً من عقابه وخوفاً من الفضيحة وخوفاً من المرض أيضاً، أو أن تقول له: إن الاقتصاد الإسلامي الناضج يحقق لك مستوى جيداً من الأرباح والمصالح مع مرضاة الله سبحانه وتعالى، أو تقول له: إن البر بالوالدين وصلة الأرحام تكون سبباً في طول العمر كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها تزيد في العمر وتزيد في الرزق، وصح أيضاً عن عائشة و ابن عباس مرفوعاً الإشارة إلى أن القوم يكونون والله تعالى يبغضهم ولا ينظر إليهم طرفة عين من بغضه لهم، ومع ذلك يرزقهم ويصحهم ويعافيهم؛ بصلتهم لأرحامهم، فصلة الرحم وبر الوالدين والإحسان إلى الفقراء والمساكين والمحاويج تزيد في العمر وتوسع في الرزق، وتكون سبباً في الصحة والعافية، هذا معنى في الخطاب الدعوي والخطاب الديني والخطاب الإسلامي ينبغي أن يستفاد كما عمله نوح عليه الصلاة والسلام .قال : ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ زيادة على ما عندكم يعطيكم الله تعالى أموالاً وبنين﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ يعني: زروع وبساتين وحقول ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ في وسط هذه الجنات أنهار تجري.

2– إبراهيم عليه السلام

ولد إبراهيم في مدينة جبلة العراقية (كانت تسمى تاريخياً باسم كوثى وهي إحدى القرى التابعة لمدينة بابل الواقعة في محافظة بابل في العراق على الجانب الشرقي لنهر الفرات، في الجنوب من بغداد بـ 80 كلم وفيها الآن ما يسمى بـ تلّ إبراهيم. وجاء في الحديث في الفترة الزمنية بينه وبين نوح (وقد ورد الحديث الشريف في قصة نوح) قوله (أن رجلاً قال: يا رسول الله أنبي كان آدَم ؟ قال: نعم. قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون. قال: كم بين نوح وإبْراهِيم ؟ قال: عشرة قرون. قال: يا رسول الله كم كانت الرسل؟ قال: ثلاث مائة وخمسة عشر) (رجاله رجال الصحيح).ويوجد سورة باسمه (سورة إبْراهِيم).

أنزلت عليه صُحُفاً (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19)) (الأعلى) جاء في الحديث الشريف عن واثلة بن الأسقع قال رسول الله (أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من (رمضان) إسناده حسن رجاله ثقات والمحدث الألباني).

وإبْراهِيم عليه السلام من بابل في العراق. وهو من نسب عابر من أولاد سام. لذا كان يتكلم السريانية ويقال أنها هي لغة أهل بابل الكلدانيين حينها، كما ذكر العيني في شرح البخاري وابن سعد في الطبقات والطبري في التاريخ، أو اللغة البابلية. وقد أُرسِل أولاً إلى أهل بابل والذي كان يحكمهم النمرود، ويسكنها الكلدانيون ثم هاجر إلى الشام (أرض كنعان) فتكلم بلغة الكنعانيين أيضاً فأصبح له لغتان. وأما إسماعيل فإنه بحكم نشأته بين أفراد قبيلة جرهم اليمانية القحطانية، والتي نشأ بينهم منذ إن كان طفلاً رضيعاً .. تلك القبيلة التي سكنت مكة بإذن والدته هاجر، ففتق الله عز وجل لسانه بالفصحى رغم أنه من والدين غير عربيين.

ذكر إبراهيم عليه السلام 67 مرة في القرآن، في 25 سورة و63 آية، والجدول التالي يبين السور والآيات التي ورد إسمه فيها:[1]

اسم السورة	رقمها	أرقام الآيات	اسم السورة	رقمها	أرقام الآيات
البقرة	2	124-125-126-127-130-132- 133-135-136-140-258-260	**الشعراء**	26	69
آل عمران	3	33-65-67-68-84-95-97	**العنكبوت**	29	16-31
النساء	4	54-125-163	**الأحزاب**	33	7
الأنعام	6	74-75-83-161	**الصافات**	37	83-104-109
التوبة	9	70-114	**ص**	38	45
هود	11	69-74-75-76	**الشورى**	42	13
يوسف	12	6-38	**الزخرف**	43	26
إبراهيم	14	35	**الذاريات**	51	24
الحجر	15	51	**النجم**	53	37

[1]- المرجع نفسه، ص67.

النحل	16	123-120	الحديد	57	26
مريم	19	58-46-41	الممتحنة	60	4
الأنبياء	21	69-62-60-51	الأعلى	87	19
الحج	22	78-43-26	/	/	/

- **قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه:**

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً * يَأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * يَأَبَتِ لاَ تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيّاً * يَأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيّاً * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِى يَٰإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيّاً * قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيّاً * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّى عَسَىٰٓ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا * فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً * وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً﴾

- **المناسبة بين القصة والمحور العام للسورة:**

نزلت فيما نزل من القرآن المكي، لغرض تقرير التوحيد، وتثبيت عقيدة الإيمان، وبيان سبيل المهتدين، وسبيل الضالين. وجاءت في ثنايا سورة تعرض نماذج عائلات ربانية، سواء في قصة زكريا ويحي، أو قصة مريم وعيسى- عليهم السلام -، أو قصة إبراهيم -عليه السلام- وأبيه، بل حتى في عرضها السريع للأنبياء عليهم السلام، نجد هذا الجانب قائماً متمثلاً، لترسم لنا طريقاً من طرق الدعوة، طريق تتجلى فيه أولوية النصيحة لأولوية القرابة، ويبرز فيه كيفية أدائها، لتثمر وتؤتي أكلها بإذن ربها.وسورة مريم في حديثها عن الرسل الكرام، تكشف عن محورها الدعوي القائم على الرحم والقربى، حتى إنه ليبدو فيها تكرار ذكر"الولد"، و"الوراثة"، وهما من السمات الجلية في صفحة القرابة، وفيها يسوق الله -جل جلاله- الحق بقوله : ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾، لتقرر أن الوارثة الباقية، والعلاقة الوشيجة، هي التي لا يفينها فناء الدنيا، فلها دوام وخلود.وترد قصة إبراهيم-عليه السلام- مع أبيه، في حدث يقوم على الحوار، حوار يرقى على درجات من الإقناع والتواصل الوجداني، ولكن:﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن

يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾، ومع ذلك ﴿إني لا أضيعُ عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾، لذلك فالنتيجة الحتمية التي يفضي إليها هي الخيرية المطلقة، وإحدى صورها ﴿وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبيّاً﴾ صورة يؤطرها أيضاً الرحم والقربى، فبر الآباء، سبباً في بر الأبناء وصلاحهم.ويجدر بنا ههنا وقفة تعكس حقيقة الأواصر والعلاقات، هذه الوقفة جسدتها الآيات في نهاية السورة، لتقرر بعمق المحور العام التي دارت حوله، من قوله تعالى: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ يجمعهم ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً﴾ ، وبالمقابل ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾، فنعم الأواصر أواصر الإيمان ميثاق شديد، وبقاء أكيد.

- **استحضار العواقب**

يتابعُ إبراهيمُ –عليه السلام–: ﴿يا أبتِ إني أخافُ أن يمسك عذابٌ من الرحمن﴾، بعد أن كشف حقيقة عبادة الأصنام، وأنها عبادة للشيطان، وعصيان للرحمن، بين له الباعث على هذه النصائح، وهو الخوف عليه من عذاب الرحمن، يقول ابن عاشور: "وللإشارة إلى أن أصل حلول العذاب بمن يحل به، هو الحرمان من الرحمة في تلك الحالة، عبر عن الجلالة بوصف الرحمن، وللإشارة إلى أن حلول العذاب ممن شأنه أن يرحم، إنما يكون لفظاعة جرمه، إلى حد أن يحرمه من رحمته من شأنه سعة الرحمة."

وفي قوله: ﴿إني أخاف﴾ يقول أيضاً: "والتعبير بالخوف الدال على الظن دون القطع، تأدب مع الله تعالى، بأن لا يثبت أمراً فيما هو من تصرف الله، وإبقاء للرجاء في نفس أبيه، لينظر في التخلص من ذلك العذاب، بالإقلاع عن عبادة الأوثان."وإمعاناً في استحضار العواقب، قال:﴿فتكون للشيطان وليّاً﴾، أي: صاحباً وتابعاً وقريناً في العذاب، فالموالاة هنا جرت مجرى المقارنة[1]

- **صدود وتهديد:**

بعد أن جرت النصائح والمواعظ من إبراهيم بسمع أبيه، ﴿قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾، يقول أبو السعود: "(قال) استئناف مبني على سؤال نشأ من صدر الكلام، كأنه قيل: فماذا قال أبوه عندما سمع منه –عليه السلام– هذه النصائح الواجبة القبول؟ فقيل: قال مصرّاً على عناده: أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم؟[2].

1_ ذكره ابن الجوزي في زاد المسير، انظر تفسير الآيات

2_ تفسير أبي السعود– سورة مريم:46

وجاء ردّه في سياق استفهام إنكاري تعجبي، ينكر على إبراهيم تجافيه وتركه عبادة آلهته، ويتعجب من صنيعه. يقول ابن عاشور: "وإضافة الآلهة إلى ضمير نفسه، إضافة ولاية وانتساب إلى المضاف، لقصد تشريف المضاف إليه"، وفي ذلك من الغرور والتمسك بالكفر، ويقول أيضاً: "والنداء في قوله: ﴿يا إبراهيم﴾ تكملة لجملة الإنكار والتعجب، لأن المتعجب من فعله مع حضوره، يقصد بندائه تنبيهه على سوء فعله، ... فالمتكلم ينزله منزلة الغائب، فيناديه لإرجاع رشده إليه، فينبغي الوقف على قوله: ﴿يا إبراهيم﴾.

وجملة ﴿أراغب أنت﴾ جملة اسمية، مركبة من مبتدأ وفاعل سدّ مسد الخبر، وبهذا يكون الفاعل في حكم المسند إليه، والمبتدأ في حكم المسند. "فمن أجل ذلك كان المصير إلى مثل هذا النظم في نظر البلغاء، هو مقتضى كون المقام يتطلب جملة اسمية للدلالة على ثبات المسند إليه، ويتطلب الاهتمام بالوصف دون الاسم، لغرض يوجب الاهتمام به، فيلتجئ البليغ إلى الإتيان بالوصف أولاً، والإتيان بالاسم ثانياً... والتحقيق أنه في قوة خبر مقدم ومبتدأ مؤخر، ولهذا نظر الزمخشري في الكشاف إلى هذا المقصد، فقال: قدم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿أراغب أنت عن آلهتي﴾ لأنه كان أهم عنده " فمناط الاستفهام الإنكاري رغبة إبراهيم عن الأصنام.

وبجهالة وفظاظة يهدد إبراهيمَ-عليه السلام- : ﴿لئن لم تنته لأرجمنك﴾، جاءت فيه "اللام موطئة للقسم تأكيداً لكونه راجمه إن لم ينته عن كفره بآلهتهم، ...وإسناد أبي إبراهيم ذلك إلى نفسه، يحتمل الحقيقة؛ إما لأنه كان من عادتهم أن الوالد يتحكم في عقوبة ابنه، وإما لأنه كان حاكماً في قومه، ويحتمل المجاز العقلي؛ إذ لعله كان كبيراً في دينهم، فيرجم قومه إبراهيم استناد لحكمه بمروقه عن دينهم "،وقيل في ﴿لأرجمنّك﴾ رجم اللسان، أي: لأشتمنّك وأظهرنّ أمرك وجاء في لسان العرب، مادة (رجم): "كلام مرَجَّمٌ: عن غير يقين، وفي التنزيل العزيز: ﴿لأَرْجُمَنَّكَ﴾ أَي: لأَهْجُرَنَّكَ، ولأَقولنَّ عنك بالغيب ما تكره، والمراجمُ الكلِمُ القَبيحة."[1]

﴿واهجرني مليّا﴾ (واهجرني) عطف على محذوف يدل عليه التهديد، أي: فاحذرني واتركني، وإلى ذلك ذهب الزمخشري[2]، و(مليّا) إما ظرف زمان، أي: زمناً طويلاً، أو حال، أي: سالماً سويّاً، وهذا تفسير ابن

1_ لسان العرب/مادة: رجم.

2_ الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، سورة مريم، ج:16،ص:99.

عباس، ومجيئه على القول الثاني يرد على أنّ الكلمة يراد بها التمتع، ومنه قولهم: تملّى إخوانه، أي: تمتع بهم والمقصود: هجراً تتمتع فيه.

3- موسى عليه السلام

كان بنو إسرائيل يقيمون على أرض مصر منذ مجيء يوسف عليه السلام إليها، ثم أحضر أمه وأباه وأخوته الأسباط الأحد عشر للإقامه بمصر (جاؤوا في عصر الهكسوس الذين غزو مصر وحكموها)، ولكن صارت معارك قوية بين الفراعنة والهكسوس، انتصر فيها الفراعنة واستعادوا حكم بلادهم (مصر والنوبة) من جديد وطردوا منها الهكسوس، وقاموا باضطهاد بني إسرائيل لأنهم موالين ومحبين للهكسوس وقد نصرونهم على الفراعنة، فجعل الفراعنة بني إسرائيل عبيداً سَخَرة خدماً، لم يحكموا أي منصب في الدولة.

وفي أحد الأيام رأى فرعون مصر (وكان حينها رعمسيس أو رمسيس الثاني هو الحاكم) في منامه ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقتها وأحرقت المصريين وتركت بيوت بني إسرائيل .. فدعا فرعون الكهنة والسحرة والمنجمين فسألهم عن تفسير رؤياه، فقالوا: يولد في بني إسرائيل بمصر غلام يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك، ويخرجك وقومك من أرضك ويبدل دينك، وقد أظلك زمانه الذي يولد فيه .لكن لم يكن بنو إسرائيل وهم على حال الذل التي كانوا بها قادرين على الانتصاف لأنفسهم فضلاً عن سلب ملك فرعون بجبروته، فصعق فرعون لهذا الخبر وصرخ قائلاً : فبعزتي وجبروتي لن يكون هذا المولود في أرض مصر، وأمر بقتل كل غلام ذكر يولد في بني إسرائيل وأقام الحراس لتنفيذ ذلك ولكنه أبقى على الإناث، فاعترض المصريون لأن بني إسرائيل عبيدهم وخدمهم وإذا أبيدوا ... لن يجدوا خدمًا يخدمونهم. فاقتنع فرعون بمطلبهم فأصبح يقتل الذكور عاماً ويبقيهم العام الآخر ... وهكذا.

ولد هارون عليه السلام (وكان أكبر من موسى) في العام المسموح فيه للذكور، ولكن موسى بن عمران عليه السلام ولد في عام القتل ... وكانت إرادة الله فوق تدبير فرعون، فولد موسى عليه السلام وكان سبباً في هلاك فرعون وبذلك تحققت الرؤيا ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ﴾.

بعد أن وُلِد موسى في عام القتل خافت عليه أمه من بطش فرعون فأوحى الله إليها أن ترضعه ثم تضعه في صندوق خشبي صغير وتلقه في نهر النيل ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾.

سار به مجرى نهر النيل – بعين الله عز وجل – ترعاه حتى وصل إلى قصر فرعون ... فرآه الخدم والتقطوه وأعطوه لآسيا بنت مزاحم امرأة فرعون، فأحبته حباً جماً وجعله الله قُرَّةُ عَيْنٍ لها ﴿وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾. طلبت آسيا امرأة فرعون أن ترعى الطفل الرضيع كولد لهما عندما قالت له ﴿عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ والمراد هنا موسى عليه السلام في سورة القصص، وقد تكررت الآية الكريمة في سورة يوسف — كما سبق ذكره– والمراد في تلك الآية الكريمة يوسف عليه السلام على لسان عزيز مصر. وجاء في حديث طويل (إسناده صحيح) عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فأتت به فرعون فقالت : قُرَّةُ عينٍ لي ولك، قال فرعون: يكون لك، فأما لي فلا حاجة لي في ذلك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي أحلف به، لو أقرَّ فرعون بأن يكون له قرَّة عين كما أقرَّت امرأته، لهداه الله به كما هدى به امرأته، ولكن الله حرمه ذلك). وحزنت أمه حزناً شديداً وتفطَّر قلبها فأرسلت أخته تقتفي أثره ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ (10) وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (11) ﴾ ولكنَّ الله عز وجل حرَّم عليه المراضع فلم يقبل أن ترضعه أي امرأه إلا عندما جاءت أمه التقم ثديها فأرضعته ... وهكذا كانت بالأمس تخاف عليه القتل والآن أضحت ترضعه بالقصر أمام فرعون وجنده ومقابل أجر. وفي قوله تعالى ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ نتأمل حرصها على ابنها مع أن الله قد تكفل بحفظه .. لا تلُم أمك في زيادة حرصها عليك، قلبها العظيم لا يتحمل !! وتحديداً كان قصر فرعون بالقرب من حصن بابليون في القاهرة القديمة بالقرب من مسجد عمرو بن العاص حالياً حيث كان نهر النيل يمر من هناك قبل أن يتغير اتجاهه ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (13)﴾

ففي زحمة الحر الذي تحسسه موسى . عليه السلام . وهو ينهي مساعدته للفتاتين. وفي زحمة الجوع الذي أضمر جسمه... في زحام هذا الإحساس بالحر والجوع ، وفي زحام الدعاء الذي توجه به إلى السماء : ﴿إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾

في زحام هذا كله : جاءته إحدى الفتاتين ، لتخبره ان أباها يدعوه ، ليجزيه أجر العمل الذي قام به.جاءته هذه الفتاة ، لينتشل موسى . عليه السلام . من الحر ، ومن الجوع . ولا يغب عن بالنا دعاءه بالانتشال . جاءته هذه الفتاة في هذا الوقت بذاته : بنحو لم يكن متوقعا : لا بالنسبة إلى موسى . عليه السلام . ولا بالنسبة لأبيها.

فالنصوص المفسرة تذكر لنا ان بنتي شعيب رجعتا إلى أبيهما مبكرتين ، في وقت لم تعتاد الرجوع فيه وهذا ما جعل أباهما يتساءل عن السر في هذه العودة المبكرة. وعندها أخبرتاه بتفاصيل الواقعة.
وحيال هذه المبادرة الخيرة ، بعث شعيب إبنته الكبيرة إلى موسى عليه السلام ، لمنحه أجرا على تلك المبادرة بيد ان موسى . عليه السلام .كما تقول النصوص المفسرة .كره هذا العرض ، لأنه تقدم بالمساعدة لوجه الله لا يبتغي جزاء بذلك إلا أن موسى . عليه السلام . اضطر إلى إجابة الطلب، نظرا للخوف الذي واكبه وهو: المهاجر ، الغريب ، الهارب من بطش الطغاة. مضافا إلى ذلك : فإنه كان في أرض مسبعة يخشى معها وحوش الحيوان.

وتقول النصوص المفسرة ، إن موسى . عليه السلام . عندما اضطر إلى الذهاب مع الفتاة ،كانت الريح تضرب بثياب الفتاة مما جعله في حرج أخلاقي ، مما اضطره إلى ان يعرض عنها حينا ، ويغض الطرف حينا آخر ،حتى انتهى الأمر إلى ان يأمرها بالمشي خلفه ، حتى يتجنب النظر إلى ما تكرهه السماء.
هنا ، ينبغي ان نلفت الانتباه إلى البعد الفني لهذه الجزئية من الواقعة ، ولجزئية سبقتها ، وهي : مشي الفتاة على استحياء فالنصوص المفسرة تذكر لنا ، أن الفتاة كانت الخفرات اللواتي لا يحسن المشي بين يدي الرجال ، ولا الكلام معهم.

وموسى عليه السلام بدوره كان لا يمارس سلوكا لا ترتضيه السماء. والنص القصصي والمفسر حينما يسرد لنا هاتين الواقعتين في سياق واقعة عامة هي : الذهاب إلى شعيب ، إنما يصوغ القصة وفق مبنى هندسي يستهدف من خلاله طرح أفكار ضمنية داخل هيكل القصة بغية أن نستثمر البعد الأخلاقي في سلوكنا
فقد لحظنا توازنا فنيا بين طرفي واقعة موسى عليه السلام . والفتاة.

الفتاة خفرة تمشي على استحياء ولا تتحدث مع الرجال إلا لضرورة. وموسى عليه السلام رجل ملتزم حقا بمبادئ السماء لا يمشي خلف المرأة ولا يتلصص بالنظر إليها.

إذن طرفا الواقعة الرجل والمرأة ، كلاهما عنصر نظيف في سلوكهما الذي جمعته واقعة الاصطحاب إلى شعيب.

وسنرى مضافا إلى ذلك . أن هذا البعد الأخلاقي الذي استهدفه النص ، وصاغه وفق مبنى هندسي خاص خلال القصة سنرى انه يمتد إلى المواقف اللاحقة في القصة منميا بناءها العضوي رابطا بين أجزاءها المتماسكة فكريا وجماليا.

لقد صحب موسى عليه السلام ، الفتاة إلى دار أبيها .كما لحظنا ولقد كان موسى عليه السلام جائعا . كما لحظنا أيضا لكنه ما ان حط رحاله في دار شعيب حتى كان العشاء مهيئا. ومع ان موسى عليه السلام كان قد توجه إلى السماء ﴿اني لما انزلت إلي من خير فقير﴾، وحيث كان الجوع قد أضمر جسمه مع ذلك كله عندما دعاه شعيب إلى تناول الطعام امتنع عن ذلك.

ولما سأله شعيب عن السبب أجابه بما مؤداه أنني لا أريد أن أخذ عوضا عن السقي إنا من أهل بيت لا نبيع شيئا من عمل الآخر بملك الأرض ذهبا.

إلا أن (شعيبا) استطاع ان يقنع موسى عليه السلام ويحمله على تناول الطعام ،عندما أوضح له أن الإطعام من عادته وعادة آبائه هنا، لا يغب عن بالنا أن نشير إلى قضية الطعام، وصلته فنيا بدعاء موسى عليه السلام عندما تولى إلى الظل وهو جائع. ولا يغب عن بالنا أيضا صلة هذه السلسلة من الوقائع الأخلاقية بعضها بالآخر حينما تصوغها القصة أو النص المفسر في تضاعيف الهيكل القصصي وفق منحى فني خاص يستثمره المتلقي ليفيد من الأفكار المطروحة داخل القصة

ونحن حين نتابع هذه الحادثة سنظفر بمزيد من التلاحم بين أجزاء القصة والقاء بعضها الضوء على البعض الآخر بحيث تتنامى الأجزاء ويفضي بعضها إلى الآخر وهكذا.

والآن ماذا يواجهنا من هذا التلاحم الفني بين أجزاء القصة ؟؟ يواجهنا موقفان : أحدهما من قبل الأب والآخر من قبل إحدى ابنتيه.

أما الأب فقد خاطب موسى عليه السلام بعد أن قص عليه حكاية لجوئه إلى مدين خاطب موسى عليه السلام قائلا :

﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾

إن موقف شعيب من موسى عليه السلام يلقي إنارة على غصب كان ممتدا مع امتداد حياة موسى عليه السلام في هذه المرحلة التي تحدثنا القصة عنها ونعني بها مرحلة الخوف الذي واكب موسى . عليه السلام . منذ أن قتل القبطي وهو خائف يترقب. ومنذ ان حاول ثانية أن يقتل قبطيا آخر فخرج خائفا يترقب متجها نحو مدين وهو خائف يترقب.

ومما لا شك فيه أن قول شعيب لموسى عليه السلام: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هذا القول ينطوي من حيث معمارية القصة على وظائف فنية متنوعة منها ان الخوف الذي كان يواكب موسى . عليه السلام وهو خوف قد انسرب إلى عدة أجزاء من القصة قد وجد الإجابة عليه في هذا الجزء من القصة بحيث تكون الإجابة عليه في هذا الجزء إفصاحا عن تلاحم الأجزاء بعضها بالآخر.

ومنها أيضا : ان الإجابة على الخوف الذي واكب موسى عليه السلام قد حسمت الموقف ووضعت حدا لأحد عناصر الحدث بحيث يفصح هذا الحسم عن أن موسى قط طوى مرحلة لم يعد لها أثر من الآن فصاعدا إلا وهو مرحلة الخوف التي أنتهت بالاستقرار عند شعيب وبمواجهة الحياة الجديدة التي تنتظره وهي حياة الزواج والعمل والاستقرار والأمن بعد أن كان موسى عليه السلام يفتقدها جميعا في مرحلته التي تحدثنا عنها.

إذن كان لخطاب شعيب نحو موسى عليه السلام ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أكثر من وظيفة فنية من حيث معمارية القصة وجماليتها من حيث حسمها لمرحلة من حياة موسى عليه السلام واستقبالها لمرحلة جديدة.

ذكر موسى عليه السلام في كتاب الله 133 مرة، في 33 سورة، وهذه أرقام السور والآيات التي ورد فيها اسمه[1]:

اسم السورة	رقمها	أرقام الآيات	اسم السورة	رقمها	أرقام الآيات
البقرة	2	-61-60-55-54-53-51 -136-108-92-87-67 248-246	**الشعراء**	26	-61-52-48-45-43-10 65-63
آل عمران	3	84	**النمل**	27	10-9-7
النساء	4	152-152	**القصص**	28	-19-18-15-10-7-3 -37-36-31-30-29-20 76-48-44-42-38
المائدة	5	24-22-20	**العنكبوت**	29	39

[1]

الأنعام	6	154-91-84	الأحزاب	33	69-7
الأعراف	7	-117-115-103-102 -131-128-127-122 -143-142-138-134 -154-150-148-144 160-159	الصافات	37	120-114
يونس	10	-84-83-81-80-77-75 88-87	غافر	40	-53-37-27-26-23
هود	11	110-96-17	فصلت	41	45
إبراهيم	14	8-6-5	الشورى	42	13
الإسراء	17	101-2	الزخرف	43	46
الكهف	18	66-60	الأحقاف	46	30-12
مريم	19	51	الذاريات	51	38
طه	20	-40-36-19-17-11-9 -70-67-65-61-57-49 91-88-86-83-77	النجم	53	36
الأنبياء	21	48	الصف	61	5
الحج	22	44	النازعات	79	15
المؤمنون	23	49-45	الاعلى	87	19
الفرقان	**25**	**35**			

4- عيسى عليه السلام

هو آخر رسل بني إسرائيل عليهم السلام جميعاً، وقد ذكره الله عز وجل في عِدَادِ الرُّسُل الذين قصّ علينا قصصهم. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

اسمه في القرآن الكريم: عيسى، ولقبه: المسيح، وكنيته: ابن مَرْيَم. وصفته: عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مَرْيَم وروح منه. وقد لُقِّبَ عيسى ابن مَرْيَم بالمسيح: لأنه ما مسح على ذي عاهة إلا برئ بإذن الله. وقال بعض السلف: سمي مسيحًا لمسحه الأرض وكثرة سياحته فيها للدعوة إلى الدين.كما يسمى عند

اليهود يسوع وهو اسم مشتق من اللغة الآرامية إلى اللغة العبرية وينطق (يشوع) وهو اسم مركب من كلمتين (يهوه شوع) ومعناه الحرفي (الله يخلص) أي: المخلِّص، إشارة إلى أنه عليه السلام سبب لتخليص كثيرين من ضلالاتهم. وذُكِرَ عيسى عليه السلام في ثلاث عشرة سورة من القرآن، وفي ثلاث وثلاثين آية منه.

أما مَرْيَم بنت عمران: جاء في تفسير البحر المحيط لأبي حيان: "مَرْيَم في لغتهم معناها: العابدة أو خادَمة الرَّب أو خادَمة بيت الرَّب وخادمة بيت المعبد المقدس، فوالدتها أرادت بهذه التسمية لها الخير والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى والتضرّع إليه بأن يكون فعلها مطابقًا لاسمها، وأن تصدّق فيها ظنها بها, ألا ترى إلى إعاذتها بالله وإعاذة ذريتها من الشيطان ؟ وخاطبت الله بهذا الكلام لترتب الاستعاذة عليه".

وهو عيسى ابن مَرْيَم بنت عمران، ويتصل نسب عمران بداود عليه السلام من سبط (يهوذا) والله أعلم. فهو عبد الله ورسوله، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل عيشًا في الأرض.

قال ابن الأثير: كان عمران بن ماثان – جد عيسى عليه السلام والد مَرْيَم – من ولد سليمان بن داود، وكان آل ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم. وقال ابن كثير ولا خِلاف أن مَرْيَم عليها السلام من سلالة داود عليه السلام، وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه. فحقيقة عبوديته بأنه نبيٌ رسولٌ وعبد لله تجلت في القرآن الكريم في أكثر من موضع منها قوله عز وجل ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾.

عيسى عليه السلام عبد من عباد الله خلقه الله جل جلاله وصوره في الرحم كما صور غيره من البشر من غير أب كما خلق آدَم من أب وأم، قال الله عز وجل ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَم خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. وفي السنة المطهرة قول رسول الله ﴿أنا أولى الناسِ بابنِ مريمَ، والأنبياءُ أولادُ عَلّاتٍ، ليس بيني وبينه نبيٌ﴾. معاني الكلمات: أولاد عَلاَّت: أمهاتهم مختلفة، وأبوهم واحد أي الأخوة لأب من أمهات شتى أي أن إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (48) وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ثم يتابع الملك البشارة لمريم عن هذا الخلق الذي اختارها الله لإنجابه على غير مثال وكيف ستمضي سيرته

في بني إسرائيل وهنا تمتزج البشارة لمريم بمقبل تاريخ المسيح ويلتقيان في سياق واحد كأنما يقعان اللحظة على طريقة القرآن ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل.

والكتاب قد يكون المراد به الكتابة وقد يكون هو التوراة والإنجيل، ويكون عطفهما على الكتاب هو عطف بيان . والحكمة حالة في النفس يتأتي معها وضع الأمور في مواضعها وإدراك الصواب واتباعه . وهي خير كثير والتوراة كانت كتاب عيسى كالإنجيل، فهي أساس الدين الذي جاء به والإنجيل تكملة وإحياء لروح التوراة ولروح الدين التي طمست في قلوب بني إسرائيل وهذا ما يخطىء الكثيرون من المتحدثين عن المسيحية فيه فيغفلون التوراة وهي قاعدة دين المسيح – عليه السلام – وفيها الشريعة التي يقوم عليها نظام المجتمع ولم يعدل فيها الإنجيل إلا القليل. أما الإنجيل فهو نفخة إحياء وتجديد لروح الدين وتهذيب لضمير الإنسان بوصله مباشرة بالله من وراء النصوص. هذا الإحياء وهذا التهذيب اللذان جاء المسيح وجاهد لهما حتى مكروا به كما سيجيء .

﴿ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله , وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله . وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾

ويفيد هذا النص أن رسالة عيسى – عليه السلام – كانت لبني إسرائيل فهو أحد أنبيائهم. ومن ثم كانت التوراة التي نزلت على موسى – عليه السلام – وفيها الشريعة المنظمة لحياة الجماعة الإسرائيلية، والمتضمنة لقوانين التعامل والتنظيم هي كتاب عيسى كذلك مضافا إليها الإنجيل الذي يتضمن إحياء الروح وتهذيب القلب وإيقاظ الضمير.

والآية التي بشر الله أمه مريم أنها ستكون معه والتي واجه بها بالفعل بني إسرائيل هي معجزة النفخ في الموات فيدخله سر الحياة وإحياء الموتى من الناس وإبراء المولود الأعمى وشفاء الأبرص والإخبار بالغيب – بالنسبة له– وهو المدخر من الطعام وغيره في بيوت بني إسرائيل وهو بعيد عن رؤيته بعينه

وحرص النص على أن يذكر على لسان المسيح – عليه السلام – كما هو مقدر في غيب الله عند البشارة لمريم , وكما تحقق بعد ذلك على لسان عيسى – أن كل خارقة من هذه الخوارق التي جاءهم بها , إنما جاءهم بها من عند الله . وذكر إذن الله بعد كل واحدة منها تفصيلا وتحديدا ; ولم يدع القول يتم ليذكر في نهايته إذن الله زيادة في الاحتياط!

فهو إذ يقول: ﴿ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ يكشف عن طبيعة المسيحية الحقة فالتوارة التي تنزلت على موسى – عليه السلام – وهي تتضمن التشريع المنظم لحياة الجماعة وفق حاجة ذلك الزمان وملابسات حياة بني إسرائيل بما أنها ديانة خاصة لمجموعة من

البشر في فترة من الزمان هذه التوراة معتمدة في رسالة المسيح عليه السلام وجاءت رسالته مصدقة لها مع تعديلات تتعلق بإحلال بعض ما حرم الله عليهم، وكان تحريمه في صورة عقوبات حلت بهم على معاص وانحرافات أدبهم الله عليها بتحريم بعض ما كان حلالا لهم ثم شاءت إرادته أن يرحمهم بالمسيح عليه السلام فيحل لهم بعض الذي حرم عليهم.

ومن هذا يتبين أن طبيعة الدين – أي دين – أن يتضمن تنظيما لحياة الناس بالتشريع ; وألا يقتصر على الجانب التهذيبي الأخلاقي وحده، ولا على المشاعر الوجدانية وحدها ولا على العبادات والشعائر وحدها كذلك . فهذا لا يكون دينا فما الدين إلا منهج الحياة الذي أراده الله للبشر ونظام الحياة الذي يربط حياة الناس بمنهج الله.

ولا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الإيمانية عن الشعائر التعبدية عن القيم الخلقية عن الشرائع التنظيمية في أي دين يريد أن يصرف حياة الناس وفق المنهج الإلهي. وأي انفصال لهذه المقومات يبطل عمل الدين في النفوس وفي الحياة ويخالف مفهوم الدين وطبيعته كما أراده الله.
وهذا ما حدث للمسيحية فإنها لعدة ملابسات تاريخية من ناحية ولكونها جاءت موقوته لزمن – حتى يجيء الدين الأخير – ثم عاشت بعد زمنها من ناحية قد انفصل فيها الجانب التشريعي التنظيمي عن الجانب الروحاني التعبدي الأخلاقي فقد حدث أن قامت العداوة المستحكمة بين اليهود والمسيح عليه السلام وأنصاره ومن اتبع دينه فيما بعد فأنشأ هذا انفصالا بين التوراة المتضمنة للشريعة والإنجيل المتضمن للإحياء الروحي والتهذيب الأخلاقي كما أن تلك الشريعة كانت شريعة موقوتة لزمن خاص ولجماعة من الناس خاصة . وكان في تقدير الله أن الشريعة الدائمة الشاملة للبشرية كلها ستجيء في موعدها المقدور.

ولم يكن هذا أمرا عاديا في الحياة البشرية ولا حادثا صغيرا في التاريخ البشري إنما كان كارثة: كارثة ضخمة تنبع منها الشقوة والحيرة والانحلال والشذوذ والبلاء الذي تتخبط فيه الحضارة المادية اليوم سواء في البلاد التي لا تزال تعتنق المسيحية – وهي خالية من النظام الاجتماعي لخلوها من التشريع – أو التي نفضت عنها المسيحية وهي في الحقيقة لم تبعد كثيرا عن الذين يدعون أنهم مسيحيون فالمسيحية كما جاء بها السيد المسيح وكما هي طبيعة كل دين يستحق كلمة دين هي الشريعة المنظمة للحياة المنبثقة من التصور الاعتقادي في الله ومن القيم الأخلاقية المستندة إلى هذا التصور وبدون هذا القوام الشامل المتكامل لا تكون مسيحية . ولا يكون دين على الإطلاق ! وبدون هذا القوام الشامل المتكامل لا يقوم نظام اجتماعي للحياة البشرية يلبي حاجات النفس البشرية ويلبي واقع الحياة البشرية ويرفع النفس البشرية والحياة البشرية كلها إلى الله.

وهذه الحقيقة هي أحد المفاهيم التي يتضمنها قول المسيح عليه السلام:

﴿ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ وهو يستند في تبليغ هذه الحقيقة على الحقيقة الكبرى الأولى حقيقة التوحيد الذي لا شبهة فيه ﴿وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربي وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم﴾ فهو يعلن حقيقة التصور الاعتقادي التي قام عليها دين الله كله المعجزات التي جاءهم بها لم يجيء بها من عند نفسه فما له قدرة عليها وهو بشر إنما جاءهم بها من عند الله . ودعوته تقوم ابتداء على تقوى الله وطاعة رسوله ثم يؤكد ربوبية الله له ولهم على السواء – فما هو برب وإنما هو عبد – وأن يتوجهوا بالعبادة إلى الرب فلا عبودية إلا لله ويختم قوله بالحقيقة الشاملة فتوحيد الرب وعبادته وطاعة الرسول والنظام الذي جاء به ﴿هذا صراط مستقيم﴾ وما عداه عوج وانحراف وما هو قطعا بالدين.

- **إتباع الحواريين لعيسى عليه السلام:**

ومن بشارة الملائكة لمريم بابنها المنتظر وصفاته ورسالته ومعجزاته وكلماته هذه التي ذكرت ملحقة بالبشارة ينتقل السياق مباشرة إلى إحساسه – عليه السلام – بالكفر من بني إسرائيل وإلى طلبه الأنصار لإبلاغ دين الله: ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ وهنا فجوة كبيرة في السياق فإنه لم يذكر أن عيسى قد ولد بالفعل ولا أن أمه واجهت به القوم فكلمهم في المهدولا أنه دعا قومه وهو كهل ولا أنه عرض عليهم هذه المعجزات التي ذكرت في البشارة لأمه كما جاء في سورة مريم. وهذه الفجوات ترد في القصص القرآني لعدم التكرار في العرض من جهة وللاقتصار على الحلقات والمشاهد المتعلقة بموضوع السورة وسياقها من جهة أخرى.

ولقد أحس عيسى الكفر من بني إسرائيل – بعد ما أراهم كل تلك المعجزات التي لا تتهيأ لبشر والتي تشهد بأن الله وراءها وأن قوة الله تؤيدها وتؤيد من جاءت على يده ثم على الرغم من أن المسيح جاء ليخفف عن بني إسرائيل بعض القيود والتكاليف عندئذ دعا دعوته: ﴿قال من أنصاري إلى الله﴾ من أنصاري إلى دين الله ودعوته ومنهجه ونظامه؟ من أنصاري إلى الله لأبلغ إليه وأؤدي عنه.

ولا بد لكل صاحب عقيدة ودعوة من أنصار ينهضون معه ويحملون دعوته ويحامون دونها ويلغونها ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (52) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ إلى من يليهم , ويقومون بعده عليها.

قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون فذكروا الإسلام بمعناه الذي هو حقيقة الدين وأشهدوا عيسى – عليه السلام – على إسلامهم هذا وانتدابهم لنصرة الله أي نصرة رسوله ودينه ومنهجه في الحياة.

ثم اتجهوا إلى ربهم يتصلون مباشرة به في هذا الأمر الذي يقومون عليه: ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾

ثم عبارة أخرى تلفت النظر في قول الحواريين ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ فأي شهادة وأي شاهدين وهو لا يؤدي هذه الشهادة كذلك حتى يجعل من هذا الدين قاعدة حياته ونظام مجتمعه وشريعة نفسه وقومه فيقوم مجتمع من حوله تدبر أموره وفق هذا المنهج الإلهي القويم وجهاده لقيام هذا المجتمع وتحقيق هذا المنهج. وإيثاره الموت في سبيله على الحياة في ظل مجتمع آخر لا يحقق منهج الله في حياة الجماعة البشرية هو شهادته بأن هذا الدين خير من الحياة ذاتها وهي أعز ما يحرص عليه الأحياء ! ومن ثم يدعى(شهيدا..)

فهؤلاء الحواريون يدعون الله أن يكتبهم مع الشاهدين لدينه أي أن يوفقهم ويعينهم في أن يجعلوا من أنفسهم صورة حية لهذا الدين وأن يبعثهم للجهاد في سبيل تحقيق منهجه في الحياة، وإقامة مجتمع يتمثل فيه هذا المنهج ولو أدوا ثمن ذلك حياتهم ليكونوا من(الشهداء)على حق هذا الدين.

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ إذ قال الله: يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون، فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة، وما لهم من ناصرين وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين.

والمكر الذي مكره اليهود الذين لم يؤمنوا برسولهم – عيسى عليه السلام – مكر طويل عريض فقد قذفوه عليه السلام وقذفوا الطاهرة أمه مع يوسف النجار خطيبها الذي لم يدخل بها كما تذكر الأناجيل وقد اتهموه بالكذب والشعوذة ووشوا به إلى الحاكم الروماني "بيلاطس" وادعوا أنه "مهيج" يدعو الجماهير للانتقاض على الحكومة ! وأنه مشعوذ يجدف ويفسد عقيدة الجماهير ! حتى سلم لهم بيلاطس بأن يتولوا عقابه بأيديهم لأنه لم يجرؤ – وهو وثني – على احتمال تبعة هذا الإثم مع رجل لم يجد عليه ريبة .

وهذا قليل من كثير ﴿ومكروا ومكر الله . والله خير الماكرين﴾ والمشاكلة هنا في اللفظ هي وحدها التي تجمع بين تدبيرهم وتدبير الله والمكر التدبير ليسخر من مكرهم وكيدهم إذا كان الذي يواجهه هو تدبير الله فأين هم من الله ؟ وأين مكرهم من تدبير الله ؟

وأما أن الله جعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة فلا يصعب القول فيه فالذين اتبعوه هم الذين يؤمنون بدين الله الصحيح الإسلام الذي عرف حقيقته كل نبي وجاء به كل رسول وآمن به كل

من آمن حقا بدين الله وهؤلاء فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة في ميزان الله كما أنهم كذلك في واقع الحياة كلما واجهوا معسكر الكفر بحقيقة الإيمان وحقيقة الأتباع ودين الله واحد . وقد جاء به عيسى بن مريم كما جاء به من قبله ومن بعده كل رسول . والذين يتبعون محمدا .

﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (56) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (57) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (58) إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (59)﴾.

هم في الوقت ذاته اتبعوا موكب الرسل كلهم من لدن آدم – عليه السلام – إلى آخر الزمان.

وهذا المفهوم الشامل هو الذي يتفق مع سياق السورة ومع حقيقة الدين كما يركز عليها هذا السياق فأما نهاية المطاف للمؤمنين والكافرين فيقررها السياق في صدد إخبار الله لعيسى عليه السلام ﴿ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ ﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين. وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم. والله لا يحب الظالمين﴾.

وفي هذا النص تقرير لجدية الجزاء وللقسط الذي لا يميل شعرة ولا تتعلق به الأماني ولا الافتراء رجعة إلى الله لا محيد عنها. وحكم من الله فيما اختلفوا فيه لا مرد له وعذاب شديد في الدنيا والآخرة للكافرين لا ناصر لهم منه . وتوفية للأجر للذين آمنوا وعملوا الصالحات لا محاباة فيه ولا بخس ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ فحاشا أن يظلم وهو لا يحب الظالمين. .

وقد ذكر اسم "عيسى" وحده في القرآن الكريم 09 مرات، واقترن اسمه باسم أمه "عيسى بن مريم" 13 مرة وذكر لقبه ونسبته "المسيح ابن مريم" 05 مرات، وذكر اسمه بالكامل "المسيح عيسى ابن مريم" 03 مرات، وذكر بلقب "المسيح" 03 مرات، وذكرت نسبته "ابن مريم" مرتين، أما أمه فذكر اسمها 9 مرات.

فمجموع الحالات التي ورد فيها اسمه 35 في 33 آية من 13 سورة. والجدول التالي يبيّن ذلك:

اسم السورة	رقمها	رقم الآية	حالات الذِكر				اسم السورة	رقمها	رقم الآية	حالات الذِكر			
			المسيح	عيسى	ابن مريم	مريم				المسيح	عيسى	ابن مريم	مريم
البقرة	2	87 136		/ /	/		المؤمنون	23	50			/	

		253		/	/							
آل عمران	3	36 42 43 44 45 52 55 59 84	/	/ / / / /	/	/ / / / /	الأحزاب	33	7		/	/
النساء	4	156 157 163 171 172	/ /	/ / /	/ /	/	الشورى	42	13		/	
المائدة	5	17 56 72 75 78 110 112 114 116	// //	/ / / / /	// / / / / / /		الزخرف	43	57 63		/ /	/
الأنعام	6	85		/			الحديد	57	27		/	/
التوبة	9	30 31	/ /		/		الصف	61	6 14		/ /	/ /
مريم	19	16 27 34				/ /	التحريم	66	12			/

5- محمد صلى الله عليه وسلم

ختم الله سبحانه وتعالى بنبيّه محمّد عليه الصّلاة والسّلام الرّسل والأنبياء فكان سيّدهم وخيرهم وأعظمهم مكانةً عند الله تعالى، فهو نبيّ الرّحمة المهداة للعالمين، وهو النبيّ الذي سطّر أروع مواقف البطولة والفداء في سبيل رفعة الدّين وإعلاء كلمته، وقد كان عليه الصّلاة والسّلام خير مبلّغٍ وناصح للنّاس، وقد حمل أمانة تبليغ الرّسالة إلى جميع الخلق فأدّاها أحسن الأداء وترك أمّته على طريقٍ بيضاء مستقيمة لا اعوجاج فيها أو زيغ، فما أبرز جوانب سيرته العطرة؟

النشأة والمولد: هو محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذي يرجع في نسبه الشّريف إلى سيّدنا إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام، وقد ولد عليه الصّلاة والسّلام في يوم الاثنين الثّاني عشر من ربيع الأول من عام الفيل في قريش ذات المكانة الرّفيعة والحظوة في جزيرة العرب لسكنها في أقدس بقاع الأرض وأشرفها عند الله وهي مكّة المكرّمة، وقد كان بنو هاشم عشيرة النّبي الكريم مسؤولين عن الرّفادة والسّقاية للحجّاج الذين يتوافدون إلى الكعبة المشرّفة، لذلك نشأ النّبي الكريم في بيت جاهٍ وعزّ وشرف بين قومه حتّى شاء الله تعالى أن يصطفيه من بين العباد جميعهم بالرّسالة والنّبوة.

البعثة الشّريفة: نأت فطرة النبي الكريم به عن ضلالات قريش وجاهليّتها ومعتقداتها الباطلة، فحبّب إلى نفسه الشّريفة التّعبد حيث كان يظلّ اللّيالي الطّوال في غار حراء بعيدًا عن أعين النّاس ولغطهم وعندما بلغ عليه الصّلاة والسّلام من العمر أربعين عامًا جاءه الوحي من الله تعالى ليخبره باصطفائه واختياره لحمل أمانة تبليغ الرّسالة الخاتمة لجميع الرّسالات، وقد كان النّبي وقتها متزوّجًا من السّيدة خديجة رضي الله عنها التي وقفت معه وصدّقته وآمنت به، فانطلق النّبي الكريم لحمل رسالة الإسلام ودعوة النّاس إليها مبتدئًا بعشيرته الأقربين، ثمّ النّاس جميعًا حتّى شاء الله تعالى أن يمكّن لهذه الرّسالة فتؤمن أغلب جزيرة العرب بها.

حدث الهجرة: مثّلت هجرة النّبي عليه الصّلاة والسّلام إلى المدينة المنوّرة منعطفًا كبيراً لكثيرٍ من الأحداث المهمّة في تاريخ الإسلام، حيث بدأت فيها المعارك والفتوحات الإسلاميّة وبدأت مهمّة ترسيخ أركان الدّولة الإسلاميّة وتمكينها، وقد ظلّ النّبي الكريم في المدينة المنوّرة عشر سنواتٍ حتّى وافته المنيّة في يوم الإثنين الثّاني عشر من ربيع الأول، فلم ير المسلمون أشد ظلمةً من ذلك اليوم؛ لفقدهم أقرب النّاس إلى قلوبهم وأحبّه إلى نفوسهم وبسبب انقطاع الوحي من السماء.

بطاقة تعريفية برسول الله صلى الله عليه وسلم

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب .

قبيلته :قرشي هاشمي .

كنيته صلى الله عليه وسلم : أبو القاسم.

أمه :آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب.

قبيلتها :قرشية زهرية.

ولادته :ولد صلى الله عليه وسلم بمكة في دار عمه أبي طالب .

تاريخ ولادته :يوم الاثنين 12 ربيع الأول من عام الفيل (الموافق 20 أبريل عام 571م)، وقيل غير ذلك .

أسماؤه صلى الله عليه وسلم :محمد، أحمد، الحاشر، الماحي، العاقب، المقفِّي، نبيُّ التوبة، نبيُّ الرحمة .

عدد أولاده الذكور :ثلاثة، وهم: القاسم، وعبد الله، وإبراهيم.

عدد أولاده الإناث :أربعة، وهنَّ: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة.

عدد أعمامه صلى الله عليه وسلم :تسعة، وهم: العباس وحمزة وأبو طالب والزبير والحارث وحجل والمقوم وضرار وأبو لهب، ولم يُسلِم منهم إلا حمزة والعباس.

عدد عماته صلى الله عليه وسلم :ستة: صفية، وعاتكة، وأروى، وأميمة، وبرة، وأم حكيم، أسلمت منهن صفية، واختُلف في عاتكة وأروى، وصحَّح بعضهم إسلام أروى.

أخواله صلى الله عليه وسلم :بنو زهرة بالمدينة المنورة، ومن أخواله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

جدة النبي صلى الله عليه وسلم أم عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم: فاطمة بنت عمرو بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة.

غزواته صلى الله عليه وسلم :غزا سبعًا وعشرين غزوة، قاتل في تسع منها.

حجُّه واعتمارُه صلى الله عليه وسلم :حج حجة واحدة، واعتمر أربعًا.

تُوفِّي صلى الله عليه وسلم :يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام 11هـ، وقيل غير ذلك

عمرُه صلى الله عليه وسلم :ثلاث وستون سنة، منها أربعون سنة قبل النبوة، وثلاث وعشرون سنة نبيًّا ورسولاً، منها ثلاث عشرة سنة في مكة، وعشر سنين بالمدينة المنورة.

زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم (أمهات المؤمنين) رضي الله عنهن:

- خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.
- سودة بنت زمعة العامرية رضي الله عنها.

- عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.
- حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.
- زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها.
- أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية رضي الله عنها.
- أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما.
- جويرية بنت الحارث رضي الله عنها.
- صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها.
- ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها.
- زينب بنت خزيمة رضي الله عنها.

الخاتمـــــة

الخاتمة:

هكذا وتأسيسا على ما مضى يكون البحث قد توصَّل إلى النتائج الآتية :

-توصل إلى أن مصطلح السياق من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة يشمل السياق اللغوي والحالي أو كلّ ما يحيط باللفظ أو النص من ملابسات لفظية وغير لفظية.

-تلتقي آراء علماء اللغة المعاصرين مع آراء علماء المسلمين القدامى في ضرورة الاستناد إلى دلالة السياق لتحديد المعنى، وفهم دلالات الألفاظ، وهذا يدلُّ على صلاحية نظرية السياق وفاعليتها في تحليل النصوص.

-أثبت البحث أنّ لدلالة السياق أهميةً في تعليل اختيار الألفاظ والتراكيب، فلكلِّ لفظٍ أو صيغةٍ في القرآن الكريم دلالة خاصة يقتضيها السياق.

-أثبت البحث أن اللفظ لا يدلُّ في السياق إلا على معنى واحد، فالألفاظ قد تدل على أكثر من معنى خارج السياق، لكنها لا تدلُّ في السياق إلا على المعنى الذي يريده المتكلم ويفهمه المخاطَب بمعونة القرائن السياقية.

-أكّد البحث أهمية الإفادة من الدراسة النصية في تحليل القصص القرآني وبخاصة فيما يتعلق بقصص أولي العزم من الرسل.

-وجد البحث أن القرآن لا يمكن أن تُسبر أغواره، أو تنكشف دلالاتُه على الوجه الأمثل إلا بِمراعاة المناسبة والعلاقات بين آياته وسوره، وهذا لا يتأتَّى إلا بمراعاة السياق .

-يصور السياق اللغوي تماسك النص القرآني ويكشف عن علاقاته الداخلية ووجوه تناسبه وترابطه، لأن ترتيب آياتِ القرآن وسوَره توقيفي، والسياق الحالي يصور العلاقات بين النص وما يحيط به من ظروف وملابسات.

- دراسة القصص أولي العزم من الرسل في ضوء السياق تكشف أن كلَّ حلقةٍ من حلقات كلِّ قصة ذُكرت في مكانِها المناسب، وأن معنى السورة ومقصودها لا يتحقَّق إلا بذكر تلك الحلقة، فضلاً عن مناسبة أسلوب العرض لسياق السورة.

-تكشف دلالة السياق عن خاصية من أهم خصائص الإعجاز القرآني، وهي ذلك التناسق بين الترتيب الزمني وفق ترتيب النزول، وبين ترتيب المصحف، وهذا التناسق يقودنا إلى القول: إن كلَّ قصة قرآنية – وإن توزَّعت في سورٍ كثيرة – يربطها خيطٌ دقيق من التماسك والانسجام،

- أثبت البحث أن فهم القصص القرآني خاصّة لا يتم إلا بمراعاة حال المخاطِب، والمخاطَب، وموضوع الخطاب، وغرضه، ومكان النزول وزمانه، وأسبابه.

هذا، وإني لأرجو أن يفيد مضمون البحث وما توصل إليه من نتائج القراء من دارسين باحثين، لعلي بذاك أكون قد أسهمت ولو بنزر قليل مما يمكنه أن يشكل لبنة في حقل الدراسات التي اهتمت ولما تزل بآي القرآن الكريم وسوره.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم، دار ابن الجوزي، القاهرة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. إبراهيم صحراوي: تحليل الخطاب الأدبي، ط1، دار الآفاق الجزائر، 1999 م.
2. إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية مادة سياق. و مجدي و هبة، معجم مصطلحات الأدب.
3. إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات اللغوية، (مادة خطب).
4. ابن أبي حاتم، تفسير ابن أبي حاتم/ طبعة بمصر 1389 هـ، 482/4.
5. ابن الجوزي، تذكرة الأريب في تفسير الغريب، طبع دا الكتب العلمية، بيرت، 1425 هـ.
6. ابن عطية (أبو محمد عبد الحق بن غالب): (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط1، ج1، لبنان، 1413 هـ، 1993 م.
7. ابن عطيه، المحرر الوجيز، دار الكتب العلمية، بيروت 1429 هـ، 46/4.
8. ابن منظور: (محمد بن مكرم): (لسان العرب)، الناشر دار صادر، ط1، ج 4، بيروت (بدون)، ص 135، مادة (خ ط ب).
9. ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، (بيروت، دار الكتب العلمية، 2005 م- 2426 هـ)، ط1
10. أبو حيان الأندلسي: (محمد بن يوسف): (البحر المحيط)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود –الشيخ علي محمد معوض- د.زكريا عبد المجيد النوقي- د. أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمة، ط1، ج1، لبنان- بيروت، 1422 هـ، 2001 م.
11. أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، الإيضاح لناسخ القرآن و منسوخه.
12. أبي حاتم، ابن أبي حاتم في تفسير، 196/1.
13. اصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، دار أحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1423 هـ.
14. الألوسي: (محمد بن عبد الله الحسيني): (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني)، دار الكتب العلمية، ط1، ج2، بيروت، 1415 هـ.
15. البرهانفوري، عيسى بن قاسم (الشيخ) الفتح المحمدي، في علم البديع و البيان و المعاني، مخطوطه.
16. البقاعي: (برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر): (نظم الدرر في تناسب الآيات و السور)، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، ج 3، بيروت 1415 هـ- 1995 م.
17. التحرير و التنوير، لابن عاشور، 322/11.
18. التفتازاني، سعد الدين: مختصر المعاني، (قم: دار الفكر، 1411 هـ) ط1، 43/1.
19. التفسير الوسيط, للزحيلي, ط1 ,1322هـ, دار الفكر, دمشق.
20. تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم, سميح عاطف الزين, ط2 ,1333هـ-1343م, دار الكتاب اللبناني،بيروت.

21. تمام حسان: اللغة و النقد الأدبي، مجلة فصول، القاهرة، 1983، مج 4، ع 1.
22. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كالم المنان، للشيخ عبد الرحمن السعدي، راجعه له عبد الرؤوف سعد، ط دار الصفا بالقاهرة.
23. جابر عصفور: آفاق العصر، ط1، دار الهدى للثقافة و النشر، سوريا-دمشق، 1997م.
24. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، م6، ج12.
25. جولياكريستيفا :علم النص،ترجمة فريد الزاهي، دارتوبقال للنشر،المغرب،ط2 ، 1997.
26. جون أوستين: (نظرية أفعال الكلام العامة –كيف ننجز الأشياء بالكلام)، ترجمة عبد القادر قينين، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 1991 م.
27. جيران جينيت: خطاب الحكاية، تر، محمد معتصم و آخرين، ط3، منشورات الاختلاف، 2003م.
28. حسين خمري : نظريةالنصمنبنيةالمعنإلىسيميائيةالدال،منشوراتالاختلاف،الجزائر،ط1، 2007.
29. الخزرجي، أبو جعفر، تفسير الخروجي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، 1429 هـ.
30. دومينيد مانقونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تو، محمد يحتاتن، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر 2005 م.
31. الدينوري، أبي محمد، عبد الله بم مسلم، تأويل مشكل القرآن، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، 1428
32. رمزي البعلبكي، معجم المصطلحات اللغوية، (مادة خطب).
33. روبرت دي بوجراند: (النص و الخطاب و الإجراء)، ترجمة: د. تمام حسان، عالم الكتب، ط1، القاهرة 1418 هـ- 1998م، (المقدمة).
34. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل الألوسي- سورة مريم/ج:16.
35. رولان بارت: (نقد و حقيقة)، ترجمة: د. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، الرباط، 1994م.
36. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت 1433 هـ، 132/1.
37. الزمخشري، أساس البلاغة، مادة (سوق).
38. الزواوي بغورة: (الفلسفة و اللغة –نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة)، دار الطليعة، ط1، بيروت، 2005م.
39. زين الدين قاسم ابن قطلوبغا، غريب القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2012 م.
40. السرخسي، أبي بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل، المبسوط دار الكتب العلمية، طبعة 1421 هـ، 70/2.
41. سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء 1997م.
42. سليمان نعشراتي: (الخطاب القرآني- مقارنة توصيفية لجمالية السرد ألإعجازي)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998 م.
43. سيد قطب: (في ظلال القرآن)، مصدر سابق، مجلد 4، ج 12.
44. السيوطي (أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر السيوطي) ت (911 هـ)،

45. الإتقان في علوم القرآن، ط3، دار الكتب العلمية/بيروت/ لبنان/ 1995، 65/1.
46. الشريف الجرجاني، التعريفات، مادة (نص).
47. الشهاب الخفاجي: (أحمد بن محمد بن عمر): (حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)، المسماة: (عناية القاضي و دراية الراضي)، دار صادر، ج2، بيروت، (بدون).
48. الشيخ محمد بخيت (مفتي الديار المصرية)، سلم الوصول لشرح نهاية السؤال، 1982، 48/1.
49. الصابوني: (محمد علي): (ضفوة التفاسير)، مكتبة الإيمان، دار الصابوني، ج1، ط9، القاهرة..
50. الطاهر بن عاشور: (محمد الطاهر بن محمد بن محمد): (التحرير و التنوير- تحرير المعنى السديد و تنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، الدار التونسية للنشر، ج2، تونس 1984م.
51. طه عبد الرحمن: (تجديد المنهج في تقويم التراث) المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، بيروت 1994 م، ص 255.
52. عبد الحليم حفني: (أسلوب المحاورة في القرآن الكريم)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987 م.
53. عبد الحليم حفني: (أسلوب المحاورة في القرآن الكريم)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، القاهرة 1995
54. عبد الرحمن أبو علي، عناصر أولية لمقاربة سيميولوجية، مجلة العرب و الفكر العالمي، بيروت، العدد الاول، شتاء عام 1988.
55. عبد الكريم حامدي: "البعد العالمي في الخطاب القرآني"، مجلة الوعي الإسلامي، عدد 532، وزارة الأوقاف الإسلامية، الكويت، 2010/9/3 م.
56. عبده الراجحي: علم اللغة و علم النقد الأدبي، مجلة فصول، القاهرة، يناير 1981، مج 1، ع 2.
57. عمر أحمد عمر، أولو العزم من الرسل، دار حسان للطباعة والنشر، م1، 1988.
58. الغزالي، المسمصفي في علم الأصول، 64/1.
59. الفراء، يحي بن زياد، معاني القرآن، طبعة دار السرور، بيروت، لم تذكر سنة طبعه، 2/ 237.
60. الفراهي، عبد الحميد (الإمام): تفسير نظام القرآن و تأويل الفرقان بالفرقات، (يو-بي، الهند: الدائرة الحميدية، 2008).
61. القاسم بن سلام، فضائل القرآن، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، 1991 م.
62. الكفوى: أبو البقاء، الكليات (معجم في المصطلحات و الفروق اللغوية).
63. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة (سوق).
64. محمدالأخضرالصبيحي :مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، الدارالعربية للعلوم، الجزائر، ط1، 2008.
65. محمد الباردي: إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، مركز النشر الجامعي، تونس، 2004م.
66. محمد التومي: (الجدل في القرآن الكريم)، شركة الشهاب، الجزائر 1997 م.

67. محمد الغزالي: (كيف نتعامل مع القرآن)، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، ط7، القاهرة يوليو 2005م.
68. محمد الماركي، الشكل و الخطاب: مدخل لتحليل ظاهراتي، ط1، 1991، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء.
69. محمد حسين فضل الله: (الحوار في القرآن)، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، ط3، بيروت 1985 م.
70. محمد رشيد رضا: (تفسير القرآن الكريم)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج1، القاهرة، 1990 م.
71. محمد سالم ولد محمد الأمن: "مفهوم الحجاج عند بيرلمان و تطوره في البلاغة المعاصرة"، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، مجلد 28، عدد 3، الكويت يناير-مارس 2000م.
72. محمد عبد اللاه عبد دبور: (أسس بناء القصة من القرآن الكريم- دراسة أدبية و نقدية)، رسالة عالمية- دكتوراه، مخطوطة، كلية اللغة العربية بالمنوفية، جامعة الأزهر 1417 هـ- 1996م.
73. محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج4.
74. محمد عزام، النص الغائب (تجليات التناص في الشعر العربي)، اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2001.
75. محمد كاظم الظواهري: (بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم)، دار الصابوني، و دار الهداية، ط1، القاهرة 1412 هـ- 1991 م.
76. محمد محمد يونس علي: (وصف اللغة العربية دلاليا)، منشورات جامعة الفاتح، ليبيا، 1993م.
77. محمد مشرف يوسف خضر: "خصائص السرد القصصي في القرآن الكريم"، مجلة: حراء، مجلة علمية ثقافية فكرية، تصدر كل شهرين من تركيا، عدد 6، يناير-مارس 2007م.
78. محمد يعقوبي: (المنطق الفطري في القرآن الكريم)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2000 م.
79. مخلوف، حسنين محمد (الشيخ): كلمات القرآن (دار أحياء التراث العربي).
80. المستدرك، الحاكم: 4262.
81. مصطفى إبراهيم: الزيات، أحمد: عبد القادر، حامد النجار، محمد: المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، 505/1.
82. المعجم الوسيط، د. ناصر أحمد، د. مصطفى محمد، أحمد درويش، أ. أيمن عبد الله، مؤسسة التاريخ العربي للطباعة و النشر و التوزيع، دار أحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
83. مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني، 321/2-322.
84. منذرعياش،النص ممارساته وتجلياته، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع96-97
85. نصر الدين صالح: التحليل الدلالي، ص 39- 42، ترجمة عن :Keith Allan: Linguisticmeaning V.I.

86. نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص في دراسة علوم القرآن، ط3، المركز الثقافي العربي/بيروت ، و الدار البيضاء، 1996.
87. نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، دراسات في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، ط 4، 1998.
88. نورالدين السد :الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج 2 ،دار هومة، الجزائر.
89. وهيبة بن مصطفى الزحلي: (التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج)، دار الفكر المعاصر، ط 2، ج1، دمشق 1418 هـ.

المراجع باللغة الأجنبية:

90. Beaugrand&Dressles, An Introdution to text linguistics, London, 1984, P
91. Beaugrand&Dressles, An Introdution to text linguistics, London, 1984.
92. bJohn Lyons: Semantics V.II.
93. Cristtal.D., A dictionary of Linguistics and Phonetics (Text).
94. Encyclopedic dictionary of Semiotics, General editor, Thomas sebeok Mouton,1986,Tom "2".
95. Firth J.R, Papers in linguistics.
96. G.R.Marten: Text and context in functional lingustics.
97. Geoffrey Finch: Linguistic terms and concepts.
98. Geoffrey Finch: Lingustic terms and concepts.
99. Halliday& Hassan: Language, context and text.
100. J.R.Marten: Text and context in funcionallingustics.
101. Mohamed Abd Allah Draz, Initiation au couran, puf 1951.
102. Northrop fry, the critical path.
103. OX-R-Fowler, Linguistics and the novel, First edition, London, 1985 .
104. Reyocaya Hassan: Text and context in functional linguistics
105. Reyocaya Hassan: Text and context in functional linguistics.
106. socialHalliday (M.A.K) &RuqaiyaHasan, Language Context and text aspects of language insemiotic prespective, 1989.
107. The Oxford English dictionary, Vol. 12.

فهرس المحتويات

قائمـــة المحتـــويات

العنوان	الصفحة
الشكر	
الإهداء	
مقدمة عامة	أ – د
مدخل تمهيدي لضبط المفاهيم	06
تمهيد	06
• الخطاب	06
• الخطاب القرآني	08
• النص	10
• السياق	11
الفصل الأول: الخطاب القرآني	14
تمهيد	14
• **المبحث الأول: مفهوم الخطاب**	14
– المطلب الأول: تعريف الخطاب	14
– المطلب الثاني: بنية الخطاب	15
– المطلب الثالث: العناصر السياقية للخطاب	15
• **المبحث الثاني: مفهوم الخطاب القرآني**	16
– المطلب الأول: تعريف الخطاب القرآني	16
– المطلب الثاني: أنواع الخطاب القرآني	17
– المطلب الثالث: خصائص الخطاب القرآني	19
• **المبحث الثالث: مقاصد الخطاب القرآني، أساليبه وأنماطه**	19
– المطلب الأول: مقاصد الخطاب القرآني	19
– المطلب الثاني: أساليب الخطاب القرآني	20
– المطلب الثالث: : أنماط الخطاب القرآني	21
الفصل الثاني : جدلية النص والسياق	44
تمهيد	45

• **المبحث الأول: مفهوم النص**	45
– المطلب الأول: تعريف النص	45
– المطلب الثاني: النص عند العرب والمحدثين	48
• **المبحث الثاني: مفهوم السياق**	50
– المطلب الأول: تعريف السياق	50
– المطلب الثاني: أنواع السياق	51
• **المبحث الثالث: العلاقة بين النص والسياق**	61
– المطلب الأول: العلاقة بين النص والسياق عند (فان ديك)	61
– المطلب الثاني: العلاقة بين النص والسياق من منظور تحليل الخطاب	62
– المطلب الثالث: : العلاقة بين النص والسياق في ميدان علوم القرآن وأصول الفقه وعلوم التفسير	63

الفصل الثالث: العلاقة بين النص والسياق في قصص أولي العزم من الرسل	75
تمهيد	76
– **نوح عليه السلام**	77
– **إبراهيم عليه السلام**	83
– **موسى عليه السلام**	88
– **عيسى عليه السلام**	93
– **محمد صلى الله عليه وسلم**	101
الخاتمة العامة	105
قائمة المصادر والمراجع	108
فهرس المحتويات	114

تم بحمد الله

الملخص بالعربية:

إن للنص والسياق والخطاب موقعا مركزيا في الأبحاث والدراسات التي تنتمي معرفيا إلى (تحليل الخطاب)، حتى إننا لا نجد مؤلفا ينتمي إلى هذه المجال إلا وقد وظف المفاهيم السالف ذكرها وما يتصل بها كالترابط والتعالق والانسجام والاتساق، فالنص يتشكل ضمن سياقات معينة، ويحمل خطابات متعددة لها أنساقها اللغوية المتميّزة، وإن اكتشاف طبيعة العلاقة بين النص و السياق في الخطاب القرآني يبدو مستعصيا ما لم نقف على المفهوم الدقيق لهذه المصطلحات وما يرتبط بها وبخاصة إذا ما تعلق الأمر بقصص أولي الأمر من الرسل وما فيها من عبر وعظات وسياقات.

الكلمات المفتاحية: النص، السياق، الخطاب، العلاقة بين النص و السياق.

Abstract:

Text, context and discourse occupy a central location in researches and studies that are parts of discourse analysis, to the extent that we cannot find an author without these concepts such as correlation, harmony, consistency …and others.

The text as imagined is formed in certain contexts and it holds a variety of discourses with different formats.

Indicating the relationship between the text ant the context in the Quor'anic Discourse seems difficult if we don't focus on specifying the exact meaning of these concepts and others; and on the different curriculums that treated this relationship by studies and analysis.

Words key : text, contexture, déscours, relation between text and contexture